تاريخ الفكر العربي

في نشوئه وتطوره بالترجمة والنقل عن الحضارة اليونانية

***

— ١ —

للعقل الانساني منازع قد تسوق إلى نواحٍ من التأمل بعيدة كل البعد عن المنزع الحقيقي الذي كان سبباً في تحريك الفكر نحو النظر في المعقولات . فاذا نظرت في الخلافات التي وقعت بين النصارى لدى أول عهدهم بالوجود ، لما استطعت أن تدرك بادىء ذي بدء ، الى أي حد سوف يذهب خلافهم ، وتنتهي مناظراتهم .

كان الخلاف على طبيعة المسيح مبدأ مناقشات تناولتها الشيع الكنسية في القرون الأولى . وكان لاختلاف المذاهب في تلك المسألة أكبر الأثر في النظر في المعقولات ، وفي التأمل الفلسفي .

اشتهرت انطاكية بأنها من أولى مدن المسيحية التي قام زعماء الدين فيها بأول حركة من تلك الحركات الفكرية التي كانت ذات أثر كبير في شيوع الفلسفة ، وفروع الفلسفة اليونانية خاصة . ذلك بعد مناظرات دينية طويلة لا محل لذكرها . وقام بالحركة في انطاكية معلمان يقال لأحدهما « ديودوروس » والآخر « تيودوروس المصيصي » وكانا شديدي الاعتقاد في كمال الناسوتية في المسيح عليه السلام .

وكان أكبر المؤيدين لهذا المذهب راهب من رهبان انطاكية يقال له « نسطوريوس » انتقل الى القسطنطينية أسقفاً لها سنة ٤٢٨ م . وتبع تأييد « نسطوريوس » لهذه الفكرة مناقشات حادة ، حتى انتهى الأمر بعقد مجلس ديني في مدينة « إفسوس » سنة ٤٣١ م فانتصر حزب الاسكندرية ، وهو

الحزب القائل بما يضاد المذهب النسطوري ، واعتبر نسطوريوس وأتباعه هراطقة.

كان النساطرة على اعتقاد كامل في أن نظراءهم بعيدون عن حكم العقل والضرورات الطبيعية . لذلك سعوا ، بعد مضي عامين على حكم مجلس « إفسوس » إلى جمع شملهم ، وعلى الرغم من مطاردتهم والاستبداد بهم ، نزلوا مصر واتخذوها مقرا لبث تعاليمهم .

قبيل ذلك العهد أغلقت مدرسة « نصيبين » (١) Nisibis أو بالاحرى انتقلت الى « الرها » Edessa ـ وفي سنة ٣٦٣ م سلمت مدينة « نصيبين » الى الفرس تنفيذا للمعاهدة التي عقدت إثر الحرب التي اشعل نارها الامبراطور « يوليانوس » . وكان اعضاء مدرستها منتشرين في الممالك المسيحية إذ ذاك ، فعادوا الى التجمع في « الرها » ، وفتحوا مدرسة سنة ٣٧٣ م وبذلك اصبحت تلك المدينة ، ولو انها في أرض تابعة للامبراطورية البيزنطية ، مركزا للكنيسة التي ينطق زعماؤها باللسان السرياني .

اصبحت مدرسة « الرها » بعد ذلك موطناً لأفراد من زعماء النساطرة الذين لم يقبلوا حكم مجلس « إفسوس » . غير أن الامبراطور « زينون » أغلق تلك المدرسة سنة ٤٣٩ م . بحجة أن صبغتها نسطورية متطرفة . فلم يجد أهلها من موئل سوى الهجرة إلى البلاد الفارسية فهاجروا تحت رئاسة كبيرهم «بارسوما» سنة ٤٥٧م

نجح « بارسوما » في أن يقنع « فيروز » Piruz ملك الفرس — بان النساطرة يوالون أبناء فارس ويمضون خاضعين لقوانينهم . وظلوا على عهدهم هذا عاكفين في كل الحروب التي وقعت من بعد ذلك . ثم أسس النساطرة مدرسة أخرى في « نصيبين » فاصبحت بورة تشع منها التعاليم النسطورية ، تلك التعاليم التي كونت وجها من أوجه المسيحية مصبوغا بالصبغة الشرقية البحتة.

---

(١) مدينة على شاطىء الفرات كبيرة تعرف بنصيبين الروم تمييزا لها عن نصيبين الجزيرة وهي مدينة أخرى عامرة . و بين نصيبين الروم و بين آمد أربعة أيام أو ثلاثة ومثلها بينها وبين حران ومن قصد بلاد الروم من حران مر بها .
معجم البلدان مجلد ٨ ص ٢٩٤

ومن ثم انتشر النساطرة في جوف آسيا ، و بلاد العرب ، ينشرون تعاليم المسيحية . ولم يكونوا عاملين على نشر المسيحية فقط ، بل أرادوا أن ينشروا معها تعاليمهم الخاصة فى طبيعة المسيح . فأخذوا يستعينون على بث أفكارهم بأقوال ومذاهب منتزعة من الفلسفة اليونانية . فأصبح كل مبشر نسطورى بحكم الضرورة معلماً في الفلسفة اليونانية ، كما أنه مبشر بالدين المسيحى .

ترجم النساطرة كتب زعمائهم ، وعلى الاخص كتب «ثيودوروس المصيصى» الى السريانية ليستعينوا بها على بث أفكارهم . ولكنهم لم يقتصروا على ذلك ، بل ترجموا كثيراً من كتب أرسطوطاليس والذين علقوا عليها ، لانهم وجدوا فيها أكبر نصير يشد عضدهم فى فهم المسائل اللاهوتية العويصة التى كانوا يبشرون بها بين أمم لم تشم من ريح المدنية الا قدرا يجعل نشر مثل تلك التعاليم متعذرا ، مالم يستعن عليها بمبادىء من الفلسفة ، ومباحث فى التأمل .

غير أن كثيرا من تلك التراجم قد صب فى قالب لم يراع فيه نقل الفلسفة اليونانية لذاتها ، بل اتخذت التراجم ذريعة لبث مذهب دينى ، هو مذهب النساطرة ، والطعن فى قياصرة الروم ، والكنيسة الرومانية ، فقلت الثقة بالنقل من هذه الوجهة وحدها ، حيث كانت الضرورة تقضى بأن يختلط قليل من الفلسفة بكثير من تعاليم المذهب النسطورى أو بالعكس ، للاستعانة بذلك على بث المذهب الدينى ، وهو الغرض الرئيسى .

تلك كانت النواة التى أشعت بالفلسفة اليونانية ، وعلى الأخص بفلسفة أرسطوطاليس والافلاطونية الجديدة فى جو آسيا خارج حدود الامبراطورية البيزنطية . وسوف نرى فى سياق هذا البحث كيف أن جماعة من مترجمى النساطرة كانوا أول من نقل تلك الفلسفة من السريانية الى اللغة العربية . و بذلك انتشرت في العالم العربى كله .

غير أنك تجد رغم هذا أن فى الحركة النسطورية أوجها من النقص شأن

كل شيء يصدر عن الانسان . فان انبتات صلاتها بالعالم اليونانى خارج الامبراطورية البيزنطية جعل حركتها التعليمية مصبوغة بصبغة الانحصار في بقعة محدودة من آسيا .

أما « نسطوريوس » فانه إن كان قد أتهم أمام الكنيسة وصدر حكم مجمع « إفسوس » عليه فانه ترك الكنيسة أمام مشكلة من مشاكلها العظمى ، التى ظلت تعمل في رؤوس الناس زماناً ، حتى انتهت المناقشات الشيعية بجمع آخر عقد فى سنة ٤٤٨ م بمدينة « خلقيدونية » Chalcedon ، وكانت نتيجته أن أخرجت فئة أخرى من الكنيسة الرئيسية هم فئة المعتقدين بالطبيعة الواحدة في المسيح . Monophysites

والظن الغالب على كثير من المؤرخين أن الكنيسة المصرية قد تبعت القائلين بالطبيعة الواحدة . ففى القرن السادس قام يعقوب السروجي وأنشأ شيعة اليعاقبة . وهو الذى كون الكنيسة اليعقوبية المصرية وجمع شمل أعضائها وأقام أسسها . وأكبر دليل على ذلك أن اسم « أقباط » مشتق من يعاقبة . فان إسم هؤلاء فى العالم اللاتينى « جاكوبيت » . وأقباط أقرب الأشياء تحريفاً اليه .

اضطهدت امبراطورية بيزنطية الشيعة اليعقوبية . ولكن أعضاءها لم يخرجوا عن حدود الأمبراطورية ، بل ظلوا داخلها كقسم مستقل بصورة خاصة من أصحاب الطبيعة الواحدة -Monophysites- وأرسلوا طائفة منهم خارج الامبراطورية تبث تعاليمهم . على أن هؤلاء قد اتبعوا نفس الطريقة التى اتبعها النساطرة فى ترك لغة نظرائهم فى الدين ، وعمدوا الى استعمال اللغة القبطية واللغة السريانية . والحق أن عصر اللغة السريانية الذهبى ، لايبدأ الا برجوع اليعاقبة عن استعمال اللغة اللاتينية ، الى اللغة السريانية .

والظاهر لكل من درس علم اللغات أن هنالك فاصلا حقيقياً بين اللغة

السريانية كما استعملها اليعاقبة فى الغرب، والنساطرة فى الشرق . فان اليعاقبة قد انتحلوا لهجات حديثة ، يغلب أن يكون السبب فيها راجعاً الى طبيعة استيطانهم وتوزعهم الجغرافى .

إذا اعتبرنا النتائج التى حدثت من خروج النساطرة واليعاقبة ، استطعنا أن نفهم لماذا ترجمت أعمال الفلاسفة اليونان الى اللغة السريانية . بينما نجد أن الحركة النسطورية قد أصبحت بالتدريج الوسط الذى تركزت فيه ثمار التثقيف اليونانى ، وانتشرت في آسيا خارج حدود الأمبراطورية البيزنطية خلال بضعة القرون التى تقدمت انتشار الإسلام .

ولا خفاء في أن تعاليم أرسطوطاليس وأتباعه المشائين ، وكذلك تعاليم فلاسفة المدرسة الأفلاطونية الجديدة ، كانت ذات أثر بارز فى التأثير على كل من تعمد الخوض فى معارك الطوائف الدينية في ذلك الزمان . وكذلك منطق أرسطوطاليس ، فانه كان كبير الفائدة وعليه بنيت طريقة الجدل التى اتخذها زعماء الدين ذريعة لاثبات مزاعمهم .

وبعد أن انفصل النساطرة واليعاقبة عن لغتهم الاصلية ، نقلوا كثيراً من الكتب المسيحية الى اللغة السريانية ، فأصبح في هذه اللغة مجموعة كبيرة من المؤلفات الفلسفية والعلمية والدينية . على أن السبب في أنه لم ينقل الى اللغة القبطية من المؤلفات بقدر مانقل إلى اللغة السريانية ، أن اليعاقبة في مصر لم تدعهم الحالات إلى مواجهة مسائل معضلة فى الدين ، كما كان النساطرة في آسيا .

كان العصر الواقع بين بدء المجادلات الدينية في الكنيسة المسيحية وظهور الرغبة عن المسلمين فى درس الفلسفة ، عصر ترجمة وانتاج ذهنى ، علق خلاله على كثير من مسائل الفلسفة واستعرضت فيه طائفة كبيرة من أفكار اليونان ومذاهبهم . ولم يعن الناقلون في ذلك العصر بالفلسفة وحدها ، بل عمدوا الى الطب وعلم الكيمياء والفلك ، فترجموا فى تلك العلوم كثيراً ، لأنهم

كانوا يعتقدون أن بين الطب و بين الكيمياء والفلك آصرة قريبة ونسباً أدنى. فكانوا يقولون بأن لعلم الفلك من الوجهة الطبيعية ، علاقة بنشوء الأمراض، وحالات الحياة والموت والصحة والمرض .

كانت المباحث الطبية أكثر ذيوعاً فى مدرسة الاسكندرية منها فى أية مدرسة أخرى . أما الفلسفة بمعناها الحقيقى فكانت علاقتها باللاهوت مباشرة ، حتى اضطر دارسوا العلوم الى أن يفصلوا بين مباحثهم و بين الفلسفة بقدر ما كان ذلك في المستطاع ، على ما كان عليه الفكر فى تلك العصور من عدم القدرة والعجز عن التفريق بين كفايات العقل البشرى .

كان « يوحنا فيلوبونس » - John Philoponus - أو يوحنا النحوى (١) — كما يدعوه العرب خطأ — من متأخرى الذين علقوا على أرسطوطاليس ، كما كان من أوائل الذين درسوا الطب فى مدرسة الاسكندرية .والسنة التى توفى فيها غير معروفة . ولكن المحقق من أمره ، أنه كان يدرس فى مدرسة الاسكندرية في الوقت الذى أغلق فيه الامبراطور (يوستنيانوس) مدارس أثيناسنة ٥٢٩ ميلادية .

ومن مشهورى فلاسفة الاسكندرية (بولس الأجانيطى)Paul of Aeginae وكان يدرس في الوقت الذى وقع فيه الفتح العربى ، وظلت كتبه زمانا طويلا تدرس فى مدرسة الاسكندرية كمتون ذات قيمة كبيرة فى علم الطب . وكان أعلام المدرسة قد رسموا برنامجاً، لعله الأول من نوعه في تاريخ الدرس والتحصيل، لتدريس الطب ، يدرسه كل من أراد أن يزاول تلك الصناعة عملياً . ولذلك انتخبوا ست عشرة مقالة من مقالات (جالينوس) وترجموها ليؤلفوا منها برنامج الطب فى المدرسة . ثم اختصروا بعضها واتخذت المختصرات كرؤوس موضوعات

---

(١) أثبت العلامة الدكتور صروف فى مقتطف مارس سنة ١٩١١ أن يوحنا أسقف نخو غير يوحنا الغرماطيقى وأن كلمة نحو آتية من اسمه وانه هو صاحب التاريخ الذى وصف فتح العرب لمصر وصف مشاهد له .

تلقى على نسقها المحاضرات التعليمية شرحاً وتفصيلا . وغالب الظن أنهم مانزعوا الى اختصار مقالات (جالينوس) واتخاذها رؤوس موضوعات فقط ، الا لما أنسوا فى أنفسهم وفى أساتذتهم من قوة الابتكار والتعمق فى الدرس لابعد مما كان يحدده لهم (جالينوس) فى مقالاته . وفى ذلك الزمان أصبحت مدرسة الاسكندرية منبعاً للكثير من الأبحاث المبتكرة المحققة النفع ، لافى مادة الطب وحدها ، بل فى علم الكيمياء ، وكثير من العلوم الطبيعية . وما أشبه مدرسة الاسكندرية قبيل الفتح العربى بخلية تدوى بمختلف البحوث العلمية .

بيد أن هذه الحركة الطيبة لم تخل من نتائجها الرجعية ، على ما كان فيها من نزعة الى العلم والفلسفة والتنوير الذهنى . فان التقاليد ، وأجدر بها أن تؤثر فى ذلك العصر أضعاف تأثيرها فى عصرنا هذا ، قد أفسدت بعض وجوه العلم والفلسفة فنزعت فئات الى ناحية (الجمود الفلسفى) Philosophical Obscurantism انتفاء الضغط على العقول والرجوع بها الى العالم المجهول من الفلسفة، على اعتقاد أن إدراكه من طريق الطلسمات وفن التنجيم مستطاع على الأقل .

هذا هو السبب المباشر فى كثرة ماتقع عليه عند العرب من ضروب المفاسد والشعوذة . وفى كل ذلك يقول كبار المؤرخين أن الذنب فى ذلك ليس ذنب الاسلام ولا المسلمين ، ولا ذنب العقل السامى ، ولكنها تراثة ورثها العرب عن الاسكندرية بعد الفتح العربى ، كما ورثتها جامعة (بادوى) Padua الاوروبية فى القرون الوسطى عن العرب .

كان أول احتكاك للعرب بالآراء اليونانية فى مدينة الاسكندرية . لذلك كانت وراثتهم منها أقرب من وراثتهم عن سوريا . ولهذا انتشر عندهم التنجيم ودلف العرب بقدمهم فى مقاوزه الوعرة ، وظلوا عليه عاكفين حتى آخر عصور مدنيتهم . ذلك لان نجم الاسكندرية فى العلم قد أطفأ أنوار السريانية . وأخص مايأخذ بلب الناس فى مثل تلك الحالات خداع الشهرة وبعد الصيت . لهذا

أكب العرب تحت تأثير تلك العوامل على نواتج العقل فى الاسكندرية، دون ما تضمنت السريانية من مباحث العلم والفلسفة .

في وسط هذه الصورة الذهنية نبتت مؤلفات « بولس الاجانيطى » الذى مر بنا ذكره . وقد ظلت مؤلفاته طوال العصر العربى والعصر اللاتينى في القرون الوسطى ، مادة التعاليم الطبية .

كذلك كانت مدرسة الاسكندرية منبتاً لعلم الكيمياء . ففيها تكونت النواة الاولى التى استمد العرب منها سواء أفى هذا العلم ، أم فيما تفرع منه من الفنون الأخر ، التى كثيراً ما امتزجت بالخيالات والاوهام . وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير مسيو (برتيلو) Berthelot - في كتابه (الكيمياء فى القرون الوسطى) الذى طبع بباريس سنة ١٨٩٣ — « ان المادة العربية فى الكيمياء تنقسم الى قسمين : الاول مترجم أو مأخوذ عن كتاب اليونان الذين كتبوا فى مدرسة الاسكندرية، والثانى يمثل مدرسة عربية ثانية مستقلة المباحث عن الاولى » .

وبينما كانت مدرسة الاسكندرية غارقة فى المباحث الطبية ، كانت كنائس آسيا وأديرتها ومدارسها ، ممعنة في المباحث المنطقية والفلسفة التأملية .

وكان من الطبيعى أن يأخذ اليعاقبة عن تعليقات « يوحنا فيلوبونس » في تدريس علم المنطق ، لعلاقتهم بمصر أولا ، ولان فيلوبونس من شيوخهم ثانياً . غير أنهم لم يفعلوا لك . بل رجعوا والنساطرة الى مختصر « فرفوريوس الصورى » في المنطق المسمى « إيساغوجى » وأخذوه كمدخل لعلم المنطق . ولا يزال هذا الكتاب يقرأ فى الازهر حتى اليوم كمدخل لذلك العلم .

أما فى الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة) والبسيكولوجيا (علم النفس) وتطبيقهما على علم اللاهوت ، أو في الاستعانة بهما على فهم المسائل اللاهوتية ، فقد كان ميل اليعاقبة الى الافلاطونية الجديدة ، والباطنية ، أقوى من ميل النساطرة ، كما كانت حياتهم وتعاليمهم أكثر استكانة فى الاديرة ، في حين انك تجد أن

النساطرة قد نزعوا الى الطريقة القديمة في تأسيس المدارس ، ولو أن ذلك لم يحل دون اتخاذهم أديرة ، كانت بدورها منبتاً للعلم والفلسفة . واذ أنت على ذلك اذا بك تجد أن نظام المدارس قد انقلب فى آخر الامر الى نظام الرهبنة .

كانت مدرسة « نصيبين » أقدم مدارس النساطرة وأعظمها جميعاً . غيرأن « ماراً بها »Mar-Abha وهو زرادشتى تنصر ، وسيم أسقفاً نسطوريا، أسس مدرسة فى « سلوقية » على نظام مدرسة « نصيبين ».

وبعد ذلك بقليل أسس « كسرى انوشروان » ملك الفرس المشهور مدرسة زرادشتية فى « جنديسابور »من أعمال «خوزستان ». وحكم « أنوشروان » بين ٥٣١ — ٥٧٨ من الميلاد . وكان قد تأثر بتعاليم اليونان، حينما كان يحارب سورية البيزنطيه ، فاضاف جمعاً من الفلاسفة اليونان، والفلاسفة العارفين بالفلسفة اليونانية، عند ما أغلق الامبراطور « يوستنيانوس» الهيا كل والمدارس في آثينا .

وكان الذين وفدوا على «كسرى »من الفلاسفة سبعة ، فاكرم وفادتهم وأضافهم وأمرهم بتأليف كتب الفلسفة أو نقلها الى الفارسية ؛ فنقلوا المنطق والطب وألفوا فيهما كتباً فطالعها هو ورغب الناس فيها (راجع الفهرست ص٢٤٢). على أنه فى رواية صاحب الفهرست شكا كبيراً. إذ كيف ينقل الفلاسفة اليونان الوثنيون الذين لا احتكاك لهم بالفارسية،وعلى الاخص الفهلوية ، كتب المنطق والطب الى لغة فارس،فى حين أن الراجح أن لا يكون لهم الملم إلا بلغتهم اليونانية القديمة ؟ يبقى ذلك الشك ما لم يثبت أن الفلاسفة اليونان كان لهم سابقة فى دراسة الفارسية فى عصر متقدم على عصر انوشروان.

ويقول بعض المؤلفين أن أنوشروان عقد المجالس للبحث والمناظرة كما فعل المأمون من بعده بقرنين ونيف ،حتى «خيل للاغريق الذين جالسوه أنه من تلامذة افلاطون» . أما عقد انوشروان لمجالس العلم فذلك محتمل ، لان أخباره مع وفود العرب وعقد المجالس لهم معروفة مشهور أمرها بين الادباء . أما بقية الرواية فامر

مشكوك فيه ، لأن عهد أنوشروان بفلسفة اليونان كان قصيراً الى حد لا يعقل أن يبرز فيه انوشروان في الفلسفة الى هذا المدى القصى . ومما يجعل الرواية أدخل فى الشك أن أفلاطون علم فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ولم يعقد أنوشروان مجالس الفلسفة والعلم إلا فى القرن السادس بعد الميلاد، فكيف يخيل الى الفلاسفة اليونان الذين حضروا مجلسه أنه تلميذ من تلامذة أفلاطون ، فى حين أن تلاميذ أفلاطون كان قد أكلهم البلى من قبل ذلك بالف عام ؟

والذى ذكر هذه الرواية العلامة (غيبون) مؤرخ سقوط الدولة الرومانية (راجع كتابه تداعى الامبراطورية الرومانية وسقوطها طبعة سنة ١٨١٣ جزء ثان ص ٢٩٨ ـ ٣٠٧) . على ان (غيبون) لا بد من ان يكون قد استسقى هذه الرواية من كتاب عربى قديم (١) .

ومما يدلك على اهتمام (أنوشروان) باولئك السبعة الذين وفدوا عليه من فلاسفة اليونان ، أنه وضع فى المعاهدة التى عقدها والامبرطورية البيزنطية ، نصا خاصاً بهم ضمن لهم به حريتهم المدنية، والدينية وعدم الاستبداد بهم فيما لو ارادوا العودة الى وطنهم .

كان هؤلاء الفلاسفة من الآخذين بتعاليم (الافلاطونية الجديدة) Neo-platonism على أن اثرهم فى الحياة الفارسية غير معروف بالضبط . فالى أى حد تذهب هذه التعاليم فى التأثير على صور التصوف التى ظهرت فى فارس فيما بعد ؟ ذلك ما أخذت المباحث الجديدة تجلو عنه الاستار . فقد كتب العلامة (نيكولسون) فى كتاب « اشعار منتخبة من الديوان » طبع كمبردج

---

(١) ذكر لى العلامة الدكتور صروف أنه قرأ فى كتاب عربى قديم رواية تثبت أن غيبون انما استسقى روايته عن مصدر عربى صحيح . على أن الثقة بالمصادر ، وعلى الاخص بمصادر عربية بعيدة العهد تناولتها الايدى بالنسخ والحذف والاضافة ، تختلف اختلافا كبيرا ، كما ان منازل الثقة ذاتها تتباين باختلاف المنقول عنه

(١٨٩٨) شيئاً يكشف عن تلك الآصرة التي تربط بين «الافلاطونية الجديدة» والباطنية كما اخذ بها في فارس .

وعقب عليه الاستاذ «ديلاسي أوليري» فدبج في مؤلفه الذي طبع سنة ١٩٢٠ عن الفكر العربي فصلا في الصوفية هو الفصل السابع من ذلك الكتاب (ص ١٨١ ـ ٢٠٧) أوضح فيه أواصر العلاقة بين الباطنيه المبثوثة في تضاعيف (الافلاطونية الجديدة) و بين الباطنية الفارسية في العصر الوثني ، وما كان من أثرها فيما بعد على صور التصوف التي اختصت بها فارس وابناء العرب بعد الاسلام.

وكان اساس التعليم في مدرسة (جنديسابور) غير مقصور على المؤلفات اليونانية والسريانية ، بل أضيف الى ذلك تعاليم من فلسفة الهند وآدابها وعلومها ، ترجمت الى اللغة الفهلوية وهي اللغة الفارسية القديمة ، وهنالك نمت علوم الطب حين تخلصت من جو الضغط والاستبداد الذي حوطها به التعاليم اللاهوتية. ومن غريب الامر أن يكون من أشهر الذين علموا الطب في ثوبة الجنديسابوري الحديث ، فئة من أشهر النساطرة المسيحيين .

ومن الذين اشتهروا من العرب قبل الاسلام في مدرسة «جنديسابور» الحارث بن كلدة الذي عرف من بعد كطبيب ، وابنه « النضر » الذي ذكره الرئيس ابن سينا كاحد اعداء سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ، وكان مع الذين هزموا يوم « بدر » ، فاسر وقتله علي بن أبي طالب صبراً ، على رواية أبي اسحاق الحصري القيراواني « راجع زهر الآداب ص ٢٧ مجلد أول» فعرضت للنبي صلى الله عليه وسلم اخته قتيلة بنت الحارث فانشدته .

يارا كباً إن الأثيل مظنة ... من صبح غادية وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية ... ماإن تزال بها النجائب تعنق
مني اليك وعبرة مسفوحة ... جادت بوا كفها وأخرى تخنق

هل يسمعني النضر إن ناديته | إن كان يسمع ميت لا ينطق
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه | لله أرحام هناك تشقق
قسراً يقاد إلى المنية متعباً | رسف المقيد وهو عانٍ موثق
أمحمد هاأنت صنو كريمة | في قومها والفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت وربما | من الفتى وهو المغيظ المحنق
فالنضر أقرب من قتلت قرابة | وأحقهم إن كان عتق يعتق
أو كنت قابل فدية فليفتدى | بأعز ما يغلى به من ينفق

وقتل علي بن أبي طالب للنضر صبراً ، أي حبساً ، غير صحيحة على مايظهر من شعر أخته قتيلة . فانها تقول : « ظلت سيوف بني أبيه تنوشه » أي تنهل منه وتنال . وما يدل عليه الشعر ، ان صحت نسبته الى قتيلة ، أنه أسر أولا ، ور.ا حبس ، كظاهر قولها : « قسراً يقاد الى المنية متعباً » وأنه قتل من بعد ذلك طعناً بالسيوف . أما مايغمز به بعض الأدباء في نسبة الشعر الى قتيلة فتنم عن بطلانه ديباجة الشعر ورنة الحزن العميق وفرط الأسى والشجن . وهو النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار (١) ، فنسبه يلتقي ونسب سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) في الجد الثالث .

* * *

ممن ذكر « الرازي » من أعلام مدرسة جنديسابور من أبناء الهند « شركة » Sharak و « قلهومن » Qolhoman ومنهم هندي يقال له « شاناك » Ganak كتب رسالة في السموم ترجمها من بعد أحد التراجمة ليحيي بن خالد البرمكي الى الفارسية ، ومن بعد ترجمت الى العربية ، للخليفة المأمون بن هرون الرشيد .

وترجمت في عصر هرون الرشيد بواسطة طبيبه الخاص بضعة كتب عن السنسكريتية الى العربية في علم الطب ، حتى أنه من المتعذر أن تعرف أصل

---

(١) راجع زهر الآداب جزء أول ص ٢٧ طبعة المطبعة التجارية بمصر سنة ١٩٢٥ .

التعاليم الشائعة فى الطب العربى إن كانت مستمدة من الاغريق أم من الهند ، أم هي مبتكرة ، الا بعد طول المزاولة والصبر على تفهم حقيقتها وطبيعتها ومقارنتها بمنازع الآراء المستمدة من كل من تلك النواحى .

وفضلا عن المدرستين المسيحية والزرادشتية ، فقد وجدت مدرسة وثنية فى « حران » ولا يعلم كيف نشأت وكيف تطورت ! ولا من وضعها وأقام أسسها ! وكانت حران مركزاً للتأثير الاغريقى منذ عصر الاسكندر المقدونى الاكبر ، وظلت مؤثلا لتعاليم الديانة اليونانية القديمة ، بعد أن انقلب العالم اليونانى الوثنى الى عالم نصرانى . والظاهر أن « حران » قد ورثت كثيراً من تعاليم الديانة البابلية القديمة التى كانت قد انتعشت فى القرون الأولى من انتشار المسيحية . الا ان صور تلك الديانة القديمة قد ذهبت بها تطورات الديانة اليونانية الوثنية كما فهمتها « الافلاطونية الجديدة » ، وكما وضعها زعماء تلك الفلسفة في مدينة الاسكندرية . ولا مشاحة فى أن حالات الفكر في « حران » تمثل آخر أدوار الوثنية اليونانية والافلاطونية الجديدة كما وضعهما « فرفوريوس الصورى » حيث ظلتا عائشتين ممدتين بكل أسباب الحياة ، عيشة بعيدة عن معترك العالم الخارج عن حيزهما .

وعلى الرغم من المدارس التى علمت على النسق اليونانى ، وأذاعت مواد الثقافة اليونانية ، فقد اقترنت التعاليم بكثير من المؤثرات الأخر التى لا يمكن لمؤرخ في تاريخ الفكر أن يغفل أمرها . فان الجنود الفارسية عند مارجعت من غزو سورية نقلت معها كثيراً من آثار الفكر اليونانى ، وطائفة من مظاهر الرفاهية اليونانية . وكذلك طبعت نفوس أبناء فارس بعد تلك الغزوة بطابع من الاعجاب بالفن اليونانى وهندسة البناء اليونانية . وكان المهندسون والبناؤون اليونان الذين أسروا في الحرب أثمن مارجع به الجيش الغازى من المغانم ، حتى أن بلاد فارس بدأت بعد تلك الغزوة تدخل لسق البناء اليونانى فيما تشيد من المبانى .

إذن فتاريخ القرون التى تقدمت انتشار الاسلام تدل على ذيوع قسط عظيم من التأثير اليونانى في كثير من فروع الفن والعلم والفلسفة والهندسة والبناء ، وفى زخارف الحياة ذاتها . ومن قبل ذلك ، منذ عصر الاسكندر المقدونى ، كان غربى آسيا لا يتنفس الا فى جو مفعم بآثار الفكر الاغريقى.

—٢—

مر بنا من قبل ذكر « بارسوما » الذى قاد الهجرة النسطورية الى بلادفارس وافتتح مدرسة (نصيبين). كان لذلك الرجل معلم يقال له (إيباس) هو القوة المحركة والعقل المفكر فى مدرسة (الرها) فى أواخر أيامها . ويظهر من المقارنة التاريخية أنه أول من ترجم (إيساغوجى) مختصر (فرفوريوس) فى المنطق الى السريانية. ويعتبر هذا الكتاب مدخلا لمنطق ارسطوطاليس كما قدمنا . ويدل ذلك على أن المنطق كان يعتبر العلم الرئيسى الذى عنى بتدريسه النساطرة ، والظن الغالب أنه لم يكن ليقل اعتباره في نظر اليعاقبه عند ذلك .

وفى ذلك الوقت ظهر (بروبوس) - Probus- فعلق على كتاب (الايساغوجى) كما علق على بعض كتب ارسطوطاليس ومنها (إرمانوطيقا) -Hermeneutica- أى العبارة أو كما يقولون (بارى أرمنياس) و (سوفسطيقا) - Sophistica - « وأناليطيقا الاولى » Analytica priora أى القياس ، فكانت هذه التعليقات بمثابة متون يرجع اليها طلاب المنطق في بلاد السريان .

ومن الوصف الذى خصت به التراجم السريانية عن أرسطوطاليس تعرف أن العرب لم يقتصروا على النقل عنهم الى العربية ، بل اتبعوا نفس الطريقة وذات الاسلوب الذى تبعه المترجمون الى السريانية ، لا في تراجمهم فقط ، بل في مؤلفاتهم أيضاً .

كان من عادة المعلقين على ارسطوطاليس قبل العصر العربى أن يأخذوا مقطعاً قصيراً من متنه المترجم إلى السريانية ، وقد لا يزيد عن بضع كلمات ،

يعلقون عليه باطناب وقد يذهب التعليق الى عدة صفحات طويلة ، وقد يقتصر على اشارات مقتضبة ، حسب ما يقتضى الحال من حاجة الى الاطناب أو الايجاز، كما لو كان معلم في مدرسة يقرأ فقرة ويلحق بأخرى بعد أن يفرغ من شرح الاولى. ولو نظرت في كتاب « المواقف » لعضد الدين ، أو نظرت في تفسير القرآن ، لوجدت أن «عضد الدين» قد اتبع هذه الطريقة نفسها فى كتابة مؤلفه الفلسفى ، كما اتبعها المفسرون فى تفسير كتاب الله .

أما التعليق على « الايساغوجى » فقد طبع بعناية الاستاذ « بومستراك » -Baumstrack- في كتاب - Aristotles bei den Syrern - فى ليبنرج سنة ١٩٠٠ كما طبع الاستاذ الكبير « هوناكر » -Hoonacker- « الاناليطيقا الاولى » فى المجلة الاسيوية Jornal Asiatique في عددى يوليه وأغسطس سنة ١٩٠٠ .

وكان (سرجيس الراس عينى) المتوفى سنة ٥٣٦ ميلادية اعظم مؤلفى العياقبة وكان مترجماً ، كما كان مؤلفاً في الفلسفة والطب والهيئة والفلك . وكان اشتغاله بالطب عمله الرئيسى ، بيد أنه ترجم الى السريانية الجزء الاعظم من مؤلفات جالنيوس . وأمضى زمنا في الاسكندرية حيث اتقن اللغة اليونانية ودرس الكيمياء والطب فى مدرستها الطبية لدى أول عهدها بتدريس ذلك العلم. أما نشأته فكانت برأس العين بالعراق . ولا تزال بعض ترجماته عن جالنيوس محفوظة حتى اليوم في المتحف البريطانى ضمن المجموعة ١٤٦٦١ والمجموعة ١٧١٥٦ . ونشر العلامة المستشرقة «ساخاو» Sachau نتفا مما هو محفوظ في المجموعة الثانية فى كتاب سماه Inedita Syriaca فى فينا سنة ١٨٧٠ . ونشر «ساخاو» فضلا عن ذلك ترجمة «الايساغوجى» ، وفي المتحف البريطانى نسخة خطية من ذلك الكتاب ، كما نشر «المائدة» لفرفوريوس وقاطيغوريا س أى المقولات لارسطوطاليس ، ومقالة في الروح ، وهي ليست مقالة اسطوطاليس المعروفة تحت عنوان (ده انيما) De Anima وكتب مقالة فى المنطق في سبعة مجلدات ، ومنها

جزء في المقولات محفوظ فى المتحف البريطانى ضمن المجموعة ١٤٦٦٠ ، ومقالة أخرى ضمن ذلك الكتاب في تعليل الكون حسب مذهب أرسطوطاليس ، وعدد من المقالات القصيرة تتناول مختلف الموضوعات . أما فى علم الفلك فقد ترك مقالة فى تأثير القمر بناها على مؤلفات جالنيوس ؛ ونشرها العلامة «ساخاو»

وقد انتشرت مؤلفات « سرجيس » بين النساطرة واليعاقبة على السواء . وكان الكل يحسبونه مرجعا من المراجع العليا فى الطب والفلسفة وثقة من ثقاتهما. ويقال انه اسس مدرسة سريانية في الطب اصبحت فيها بعد النبع المنبثق بما استسقى منه العرب . على ان الراجح أنه لم يؤسسها ، بل كان له أثر كبير فى تأسيسها وقيامها .

وفى القرن ذاته ـ أى القرن السادس الملادى ـ عاش «أخوديما» Ahudemmeh الذى أصبح اسقفاً فى « تغريط » -Tagrit- سنة ٥٥٩ م . فادخل تعليقات «يوحنا فيلوبونس » على أن تكون الكتاب المدرسى بين اليعاقبة الذين يتكلمون السريانية . ويقول بعض المؤلفين إنه الف مقالات في تعريفات المنطق ، وفي حرية الارادة ، وفي الروح ، وفي الانسان باعتباره عالما صغيراً . -Microcosm- ومقالات أخرى فى تركيب الانسان على ان مكون من جسد وروح . وهذه المقالة محفوظة في المتحف البريطانى ضمن المجموعة ١٤٦٢٠ .

وان صح أن « اخوديما » قد كتب في الانسان باعتباره عالما صغيرا ، حق لنا أن نكرر المثل القائل « لاجديد تحت الشمس » . فان الانسان أو العالم الصغير ـ Microcosm ـ قد سد التفكير فيه فراغا كبيراً في عقل «هردر» Herder الفيلسوف الالمانى في القرن التاسع عشر . كذلك انتشرت فكرات فلسفية ، بل مذاهب حصرت همها فى بحث الانسان وعلاقته بهذا الكون الفسيح وطبيعياً وأدبيا ، بل تعدت الى النظر الغيبى .

كان مذهب «سبنسر» في النشوء ، ومذهب «هردر» فى (الميكروكوزم)

ى العالم الصغير يرميان الى إثبات وحدة الفكر ، واحداث ذلك التصور العميق الذى يسوق الى الاعتقاد بان الاشياء تحتفظ ببقائها ، وأن الحوادث الكونية تقع خضوعاً لعلاقة كائنة بينهما يمكن ادراكها وان وجهتى النظر الدينى والعلمى فى هذه الحياة يمكن التوفيق بينهما .

فى القرن التاسع عشر حصرت طائفة من الكتاب همها فى وصف العالم وصفاً دقيقاً . حتى أن مؤلفاتهم قد كونت فى عقل « هردر » حالة تساءل معها — « في وسط تلك الصورة التى صورت بها الطبيعة، وفى جوف التغيرات التى تنتاب هذا الكون الاكبر ، أين يوجد الكون الاصغر ؟ »

ان صور هذه الدنيا العظيمة اذ تتغلغل في أعماق سحيقه من الادراك العام، انما تلزمنا الرجوع الى أنفسنا لكي نعاود التساؤل كما تساءل « هردر » « أية قيمة لحياة الانسان والانسانية ، بما فيها من الخصائص الخالدة وبما فى تاريخها من أوجه التغاير في وسط هذه الطبيعة من مجموعها »؟

أما اذا أردنا ان نعرف ان كانت هذه الفكرة بذاتها هى التى قامت في رأس « اخوديما » في القرن السادس الميلادى ، ثم عادت الى التكون فى عقل « هردر » في القرن التاسع عشر ، والفاصل بينهما ثلاثة عشر قرنا من الزمان، فيغلب أن تكون محفوظات المتاحف الاوربية كفيلة بذلك .

* * *

من بين مؤلفى النساطرة الذين عاشوا خلال القرن السادس الميلادى « بولس الفارسى » Paul The Persian ، وقد كتب مقالة فى المنطق أهداها الى الملك كسرى انوشروان ، وقد نشرها مسيو « لاند » Land في كتابه المسمى Analecta Syriaca

كان هذا فجر الفتح العربى . ففى سنة ٦٣٨ من الميلاد فتح العرب سوريا ، وتبعها فتح مابين النهرين والعراق فى سنة واحدة، وبعد أربع سنوات فتحوا بلاد

فارس . وسنة ٦٦١م. استقر الملك لبنى أمية في دمشق. ولكن هذا الفتح لم يؤثر فى حياة الجماعات المسيحية حيث كانت طوائفهم تعيش تحت الحكم العربى متمتعة بكل ضروب الحرية السياسية والدينية ، ولم يتعرض حكامهم العرب لشؤونهم الذاتية ، وكل ما كان يطلب منهم للحكومة انما ، هو الخضوع لقوانينها الزمنية ودفع الجزية.

وحوالى سنة ٦٥٠م. كتب «حنانيشو» -Henanieshu- مقالة فى المنطق وعلق على «يوحنا فيلوبونس» ولم يكن لليعاقبة مدارس ظاهرة الاثر كما كان للنساطرة ، ولكنهم استعاضوا عن ذلك بديرلهم في «قنسرين» على ضفة الفرات اليسرى ، كان مقراً لدرس منتجات العقل اليونانى.

وكان أعظم من ظهر فيهم هنالك «سويرس سيبوقط» Severus Sebokt — الذى عاش قبيل الغزو العربى ، وألف تعليقا على «إرمانوطيقا» Hermeneutica — لارسطوطاليس لم يبق منه إلا أجزاء صغيرة ، ومقالة أخرى فى القياس تعليقا على «أناليطيقا» الاولى — Analyica Priora وشرح بعض المعضلات التى صادفها فى «الريطوريقا» Rhetorica أى الخطابة ، لارسطو . اما في علم الفلك فقد كتب مقالة في « صور منطقة البروج» وأخرى فى « الاسطرلاب». أما الاولى ففى المتحف البريطانى محفوظة ضمن المجموعة ١٤٥٣٨، وطبعها العلامة المستشرق «ساخاو». وأما الثانية ففى برلين ضمن مخلفات «ساخاو»، وطبعها العلامة « ناو» Nau فى الجريدة الاسيوية سنة ١٨٩٩ .

وكان « أتناسيوس بالد » Athanasins Balad أسقفاً يعقوبياً سنة ٦٨٤ م. والمعروف عنه أنه ترجم الايساغوجى الى السريانية ، ولاتزال هذه الترجمة محفوظة الى اليوم فى قصر الفاتيكان . وهو من تلاميذ سويرس سيبوقط .

كذلك كان يعقوب الرهاوى Jacob of Edessa تلميذاً لسيبوقط ، وصار أسقفاً في الرها Edessa سنة ٦٨٤ ، وترك منصبه هذا سنة ٦٨٨ لأنه عجز عن

ادخال الاصطلاحات في الاديرة التابعة لابرشيته . واعتزل في دير «مار يعقوب» في «قيسون» بين حلب والرها . ثم تركه الى دير آخر في أبرشية انطاكية حيث أمضى أحد عشرة سنة يعلم المزامير ، ويقرأ الكتاب المقدس باللغة اليونانية حتى أحيي أمواتها ، بعد أن كادت تموت بالاغفال . غير أنه لم يعش هنالك هادئاً فان أعداءه اضطهدوه بحجة أنه يعلم الكتاب المقدس باللغة اليونانية . فسافر ثم عاد الى الرها قبيل موته بأربعة اشهر فقط . وكتب في ذلك الحين مقالا طبياً في المصطلحات المستعملة في الفلسفة ، ولا يزال محفوظاً في المتحف البريطاني في المجموعة ١٢١٥٤ .

ومن تلاميذ (أتناسيوس) المذكور آنفاً (جورجيس) James Bishop of The Arabs الذي سيم أسقفاً للعرب سنة ٦٨٦ م . وقد ترجم كل كتاب أرسطوطاليس في المنطق (الاورغانون) Logical organon ولا يزال محفوظا من ترجمته حتى اليوم في المتحف البريطاني في المجموعة ١٤٦٥٩ كتاب قاطيغورياس وإرمانوطيقا ، وانااليطيقا الاولى ، وكل من هذه الكتب مقدم بتصدير وعليه تعليقات .

***

إن هؤلاء الاعلام الذين عرض ذكرهم حتى الآن في سياق هذا المقال هم الذين يكونون تاريخ الفكر في العصور القديمة منذ انفصل النساطرة واليعاقبة حتى الفتح العربي . وان هذا لكاف لاظهار أن المتكلمين بالسريانية قد ظلوا طوال تلك الاعصر على ما كتب أرسطوطاليس في المنطق وما بعد الطبيعة عاكفين ، ولم يفتهم أن يعنوا بالطب ودرس كثير من فروع العلوم الأخر .

غير أنك إن بحثت في أعمال هؤلاء جميعاً لما وقعت على شيء من قوة الابتكار الحقيقي . أو على تعمق في الدرس العلمي ، أو التأمل الفلسفي الصحيح . لأن جماع ما في تلك الحركة لم يكن الا نقل المتون الموجودة بين أيديهم ، مع اصدار تراجم

جديدة فيها ، أو تعليقات عليها ، أو مقالات تفسيرية تحشى بها . على أن هذه الاشياء بدورها قد سدت فراغا كبيرا في تاريخ الفكر الانسانى .

على أن الفتح العربى لم يحدث من أثر يصد تلك البحوث العلمية عن الانبعاث في طريقها . فبنو أمية لم يفكروا يوما في التعرض لشئون المدارس الفلسفية ، وكان الطلاب من السريان ممتعين بأقصى حد من الحرية تحت حكم العرب .

أما ما يرويه بعض المتعصبين من المؤرخين فى مطاردة العرب لرؤساء الدين المسيحى فكله فاسد من أساسه. فقدكان بعض رؤساء المسيحية يلجؤون الى الخليفة العربى المسلم ويضجون له بالشكوى من اخوانهم في الدين ، وكان ذلك السبب الاكبر في التعرض لشؤون النصارى. وهو مايسميه بعض المؤرخين تعقباً للنصرانية ومطاردة لها . واستمر أساقفة المسيحية على بحثهم العلمى والفلسفى حتى سنة ٧٤٠ حين سيم « مار أبها » Mar Abha رئيساً لاساقفة النساطرة فألف تعليقاً على منطق ارسطوطاليس .

وكانت سنة ٧٤٠ م أى سنة ١٣٣ للهجرة بدء عهد جديد في تاريخ العربية إذ أخذ أبناؤها يبدون حظاً غير قليل من الاشتراك في تلقى الفلسفة والعلم ، و بدأت التراجم والتعليقات تظهر في اللغة العربية . على أن الدراسة باللغة السريانية لم تفقد أهميتها فجأة ، بل ظلت موئلا للعلم ومهداً للفلسفة حتى زمان « أبى الفرج بن العبرى » فى القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٨٦) الذى ينتهى به تاريخ الآداب السريانية سوف نعود الى الكلام فيه.

وكونت أول مدرسة صحيحة للترجمة فى العالم العربى من حنين بن اسحاق وابنه اسحاق بن حنين وابن اخته حبيش الاعسم الدمشقى ، مع غيرهم من المترجمين ، تلك المدرسة التى أسسها في بغداد الخليفة المأمون لتنقل المتون اليونانية فى الفلسفة والعلوم الى العربية . وذلك ماسوف نعود اليه بعد .

غير أننا لا ننسى هنا أن حنين بن اسحاق كان مسيحياً نسطوريا واشتغل زماناً بالترجمة من اليونانية الى السريانية . والمقول إنه ترجم من السريانيسة ، الا أنه راجع فقط ، على الرواية الصحيحة ، الايساغوجى لفرفوريوس ، وارمانوطيقا لارسطوطاليس ، وجزءاً من الاناليطيقا ، ومقالة لارسطو طاليس في الروح المسماه « ده أنيما » de Anima وجزءا من الميتافيزيقا — مابعدالطبيعة — وتلخيصات نيقولاوس الدمشقى ، وتعليقات الاسكندر الافروديسى ، والجزء الاعظم من مؤلفات جالينوس Galen وديوسقورس Dioscorus و بولس الاجانيطى ، وأبقراط .

كذلك ترجم ابنه اسحاق مقالة ارسطوطاليس (de Anima) في الروح . ومن الغريب أن تصبح ترجمة اسحاق لهذه المقالة وتعليق الاسكندر الافروديسى عليها مرجعاً من أهم المراجع لدرس الفلسفة فى عصرنا هذا ، ذلك لان الفكر قد اتجه الى درس علم النفس — البسيكولوجيا — فى الاعصر الحديثة ، كما انه أخذ يبتعد عن درس المنطق حالا بعد حال .

وفي ذلك العصر ألف الطبيب « يوحنا بن ماسويه » (٨٥٧ م) مؤلفات كثيرة فى الطب باللغتين السريانية والعربية . وكان ، كما كان حنين بن اسحاق ، أحد الذين انتخبهم العباسيون واحلوهم محلا رفيعاً من الاحترام والاجلال وحوطوهم بالعناية فى بغداد عاصمة ملكهم ، لينقلوا فلسفة اليونان الى العربيـة . وعاصر هؤلاء فئة من الكتاب السريانيين كتبوا تعليقات على منطق ارسطو طاليس وهو كما يقول العرب « أبو زكريا يوحنا بن ماسويه » . وكان أبوه صيدلياً فى جنديسابور وثقفه فى بغداد جبرائيل بن بختيشوع . واشتهر فى زمان المأمون والواثق الى زمان المتوكل . (راجع أخبار الحكماء ص ٢٤٨ طبع مصر)

وفي القرن الثانى عشر المسيحى علق « ديونسيوس بارصاليبى » Dionisius bar Salibi على كتاب الايساغوجى وقاطيغورياس و إرمانوطيقا واناليطيقا .

وفي أوائل القرن الثالث عشر كتب « يعقوب بارشاقاقو » Jocob bar Shakako

مجموعة من المحاورات، تكلم في الجزء الثاني منها على مسائل كثيرة في الفلسفة والمنطق والفوسيقى(١) -Physics- والرياضيات وما بعد الطبيعة .

وينتهي العصر السرياني في نقل الفلسفة بالباحث « غريغوري بار إبراوس » -Gregory Bar Hebraeus- الذي تقدم ذكره ، وهو الملقب « بابي الفرج بن العبري » Abu l' Farag في القرن الثالث عشر الميلادي . وقد لخص في كتابه « إنسان العين » ، وهو مجموعة ملخصات في المنطق، كتاب ايساغوجي لفرفوريوس ولخص عن ارسطو طاليس كتاب المقولات — قاطيغوریاس — وارمانوطيقا أي العبارة ، وانالیطيقا أي القياس ، وطوبيقا Topica أي الجدل ، وسوفسطيقا - Sophistica - أي السفسطة . وكتب كتابا آخر لخص فيه مقدمات للمنطق والفوسيقى وما بعد الطبيعة واللاهوت . وسمى هذا الكتاب على ما نظن « عيون الحكمة » . وله كتاب ثالث اذكر ان اسمه « زبدة العلوم » أو ما يقارب ذلك هو عبارة عن موسوعة جمع فيها فلسفة ارسطو طاليس ، واختصر ذلك الكتاب من بعد تحت عنوان آخر . وترجم عن السريانية مؤلف « ديوسقوروس » في البسائط ، وألف مقالة في الطب أجاب بها على « مسائل » حنين بن اسحاق ، وله كتاب آخر في الجغرافية لا أذكر اسمه العربي .

ويعرف أبو الفرج في العالم اللاتيني باسم « أبولفرجيوس » (٢) أما الاسم « بارابراوس » فراجع الى أصله العبري . ولد في مدينة من مدائن أرمينيه

---

(١) ترجمنا كلة Physics وهي المصطلح على ترجمتها « بالعلم الطبيعي » بكلمة « فوسيق » تمييزا لها عن كلة Nature أي طبيعة ولتتنكب بذلك استعمال مضاف ومضاف اليه في ترجمة كلة واحدة في اللاتينية. ولنا باستعمال العرب كلة موسيق Music أسوة في الاصطلاح على هذه الترجمة

(٢) عن المقتطف مجلد ٣٠ ص ٨١ ـ هو جمال الدين أبو الفرج مارغريغوريوس الملطي ولد بقرية ملطيه في آسيا الصغرى ثم رحل مع أبيه الى انطاكيه وقرأ الطب على أبيه واشتغل بالعلوم اللاهوتيه والرياضيه والفلسفيه في انطاكيه ثم انقطع في بعض الاديرة وصار اسقف غوبا ثم حلب على اليعاقبه. ومؤلفاته كثيرة جدا أشهرها تاريخان بالسريانيه والعربيه ينتهيان الى سنه ١٢٨٤ م. والعربي منهما تاريخ الدول . وتوفي في مراغه اذربيجان سنه ١٢٨٦م.

سنة ١٢٢٦ وكان أبوه « هرون » طبيباً . وبعد أن تلقى على أبيه زماناً استعمق في دراسة الطب حتى نال منه حظاً موفوراً . وكانت معرفته بالعربية والسريانية واليونانية ، وتنطسه في الفلسفة واللاهوت، سبباً في أن يذيع صيته ويرتفع ذكره . وفي سنة ١٢٤٤ م انتقل الى انطاكية Antioch ، وبعد ذلك بقليل ذهب الى طرابلس وصار أسقفاً في « غوبا » وله من العمر عشرين سنة . ومن ثم انتقل الى أبرشية حلب وانتخب سنة ١٢٦٦ رئيساً لاساقفة اليعاقبه ، وظل أسقفاً حتى توفي بمراغه أذربيجان سنة ١٢٨٦ م

وأبو الفرج إن كان قد كتب في كثير من فروع العلوم المعروفة في عهده، الا أن شهرته تنحصر في العالم اللاتيني على الاخص في تأليفه كتابا وضعه في تاريخ العالم منذ الخليقة الى زمانه . وكتبه في السريانية أولا ، وبعد زمان كتب له مختصراً في اللغة العربية . وقيمة الكتاب الحقيقيه ، على ما يقول كثير من المستشرقين، تنحصر في كلامه عن الامم الشرقيه وأصلها كالعرب والتتار والمغول وغزوات جنكيز خان . أما ما بقى بعد ذلك فمملوء بالاغلاط ، لانه لم يكن واقفاً على عدة من اللغات القديمه التي كان لا بد له منها للاستعانة بها على ضبط أسانيده. وقد ترجم المختصر العربي الى اللاتينيه بعناية الدكتور « بوكوك » Dr. Pococke وطبع في اكسفورد سنه ١٦٦٣ . وظهر جزء من المتن العربي مع ترجمته اللاتينيه بعناية الاستاذين برونس وكيرش Brons and Kirsche مطبوعا في ليبزج سنة ١٧٨٨ .

وقد اعتبر « أبو الفرج » من الثقاة في السريانية وعلومها وترجماتها وظل له الخطر الاكبر في نظر طلاب العلم زمانا طويلا ، في حين أنه لم يتعد ، كما يؤخذ من تاريخه الذى حققه المستشرقون، حد الجمع عمن سبقه من الكتاب والفلاسفة في موسوعة تضمنت ابحاثهم .

كانت الجامعات السريانية التي دانت بالمسيحية بيئة طيبة انتعشت فيها الفلسفة

اليونانية والعلم اليوناني ، ومن ثم انتقل كلاهما الى العرب . على انه لم تنم بين السريان روح الابتكار والاستقلال في الرأى العلمى ، حتى أن الكتب التى ترجمت الى السريانية ، كانت قد خرجت من يد اليونان انفسهم من قبل ان تنتقل الى السريان . وكان المعتقد الثابت عندهم أن اساس العلوم الانسانية هو منطق أرسطوطاليس . أما ما بقي مما درس أو كتب المعلم الاول فيجب ، على معتقدهم ، ان يفسر على قواعد « الافلاطونية الجديدة » ومن علق عليها . أما فى الطب والكيمياء فان برنامج مدرسة الاسكندرية فيهما كان معتبراً أرقى مايصل اليه التثقيف في هذين العلمين . على ان هذا الامر لواقتصر على مانقل عن جالينوس وابقراط ، وعلى تعاليم « بولس الاجانيطى » في طب التوليد، لكان خيرا للناس ، لولا أن امتزج بتلك العلوم قسط من الباطنية Mysticism كان ذائعاً فى مدرسة الاسكندرية ، وكان قوامه علم التنجيم ـ الاسترلوغيا . فمازج العلم بالاساطير ، وشاعت فكرة أن بعض العقاقير الطبية لاتفيد فائدتها المرجوة ، الا عند مرور نجم من النجوم السيارة ، وما يجرى ذلك المجرى من الفكرات الخيالية التى صبغت الطب في الاسكندرية ، ومن بعد عند العرب ، بصبغة من السحر والشعوذة عاقت خطاه دون الانبعاث فى سبيل التقدم والرقى أزماناً متعاقبة .

ولا سبيل الى القول بان علم العرب فى الطب والكيمياء كان عبارة عن تدجيل صرف كما يقول بعض الذين لم يتجشموا مؤونة البحث والتحقيق . ففى العربية مؤلفات قيمة خدمت هذين العلمين اجل الخدمات واكبرها شأناً ، ولو ان الجمود الفلسفى الذى شاع في مصر كان في الغالب السبب فى صد تيار للتقدم فيهما وعاق خطى الباحثين دون الابتكار طويلا .

***

من هنا نعتقد أن اللاهوت والفلسفة والعلم فى الاسلام لم يغرس الا فى أرض شبعت من قبل بالثقافة اليونانية على اختلاف ضروبها وتباين الوانها . أما السبيل

التي خطت فيها الثقافة اليونانية الى العرب فذات خمس مفاوز .

أولا — النساطرة، الذين كانوا أول من علم المسلمين وأول الذين خدموا الطب فى العصور الاول .

ثانيا — اليعاقبة الذين كانوا أول من أدخل الباطنية والافلاطونية الجديدة في الجو العربى .

ثالثا — الزرادشتيون في فارس وعلى الاخص مدرسة جنديسابور ، ولو ان هذه المدرسة قد امتزجت بعنصر قوى من عناصر النسطورية .

رابعاً — وثنيو « حران » ولو ان اثرهم في الاسلام لم يأت الا مؤخرا .

خامساً — العبرانيون ، على أنهم لم يكونوا على صلة بالفلسفة الارسطوطالية، وظلت مدارسهم في صور Sora « وبامباديثا » Pambaditha عاكفة على درس شرائعهم التقليدية .

لم يبدأ العبرانيون في درس الفلسفة الا فى العصور المتأخرة وقد استمدوا من فلاسفة العرب. غير انهم ورثوا عن النساطرة نزعة الى علم الطب ، حتى أن الاطباء اليهود قد ظهروا في أوائل عمارية بغداد .غير انهم لم يبزوا النساطرة فى ذلك . فمن بين الاطباء الذين يذكرهم العلامة « لكلار M.Leclerq في كتابه تاريخ الطب عند العرب Histroire de la Medicine Arabe في القرن العاشر الميلادى ٢٩ طبيباً مسيحياً وثلاثة من اليهود واربعة من وثنيي حران . في حين ان النسبة اختلفت في القرن الحادى عشر ، فكانوا ثلاثة مسيحيين وسبعة من اليهود ، ومن ثم تكاثر الاطباء العرب من بعد ذلك كثرة لا تحفظ فيها النسبة بينهم و بين غيرهم.

***

— ٣ —

لم تمض على سقوط دولة بنى أمية في الشام ثمانون عاما الا وكان بين يدى العرب مترجمات عن أكثر ما كتب « أرسطوطاليس » وتعليقات الذين اشتهروا من

زعماء « الأفلاطونيه الجديدة » وبعض كتب أفلاطون ، والجزء الأكبر من كتب « جالينوس » وأجزاء اخر نقلت عن كتب بعض الأطباء والذين علقوا عليها ، وطائفة غيرها من كتب حكماء اليونان وكتاب الهند وفارس.

لم يأت بعد هذه الحركة العلمية من مثيل لها فى التاريخ الا حركة النهضة العلمية في ايطاليا بعد سقوط القسطنطينية فى يد محمد الفاتح ، مؤسس دولة بنى عثمان في ربوع أوروبا

وينقسم تاريخ الترجمة عندالعرب الى قسمين عظيمين : يبتدىء أولهما بقيام دولة العباسيين الى قيام المأمون بن هرون الرشيد أى من سنة ١٣٢ هـ ـ ٧٤٩م إلى سنة ١٩٨ ـ هـ ـ ٨١٣ م وقد ترجم فى هذا العهد كثير من الكتب نقلها كتاب ومترجمون نالوا الحظوة الكبرى عند خلفاء بنى العباس وكان كل منهم يشتغل مستقلا بنفسة ،وأكثرهم من المسيحيين والاسرائيليين، وبعض الذين اعتنقوا الاسلام من أهل الوثنية والديانات الأخرى . ويبدأ ثانيهما بقيام المأمون والذين عقبوه على كرسى الخلافة من العباسيين . وأخص ما يمتاز به هذا العصر تأسيس تلك الأكاذيمية الكبيرة (بيت الحكمة)التى أقامها المأمون فى بغداد ، فجمعت بين جدرانها فئة صالحة من المشتغلين بالعلم والفلسفة والترجمة ، وكان همهم ان يصيغوا الكتب التى ينقلونها ، أو التى نقلت ، في قالب يستطيع به طلاب العلم من العرب الوقوف على اسرار العلم والحكمة

كان أول عهد للترجمة فى العالم العربى مقرونا باسم « عبد الله المقفع » وهو من أبناء فارس ، زرادشتى الديانة، اعتنق الاسلام على يدمحمد بن على أبو السفاح . وكان من المقربين فى بطانته . على أن نهاية ابن المقفع كانت محزنة ، فانه مات مقتولا بأمر الخليفة المنصور الى سفيان حاكم البصرة ، وكان بينه وبين ابن المقفع ترة ، فقسى في قتله . وكان ذلك سنة ١٤٢ هـ — ٧٥٩ أو ١٤٣ — ٧٦٠ م

ويقال إن إسلام ابن المقفع كان ظاهريا ، وأنه ظل أميناً للزرادشية . فكان

يعتبر زنديقاً . والزنادقة اصطلاح يعنى به « المانويون» أتباع «مانى بن فاتك » (١) وهم قوم من الوثنيين يقدسون الليل .

ولقد عثرت على قصيدة فيها ذكر للمانويين وتقديسهم لظلمة الحلك وضعها حافظ بك ابراهيم ترجمة لقصيدة شكسبير في رواية « مكبث » وكان قد ترجم الرواية كلها ولكن الترجمة فقدت . واليك مطلع القصيدة :

كانى أرى فى الليل نصلا مجرداً ... يطير بكلتا صفحتيه شرار
أراه فتدنينى اليه شراستى ... فينأى وفي نفسى اليه أوار

وقال بعد أن تملكت من « مكبث » نزوة القتل ونهمة الدماء .

فياحلم قاطعنى ويارشد لاتثب ... وياشر مالى من يديك فرار
وياليل أنزلنى بجوفك منزلاً ... يضل به سرب القطا ويحار
وإن كنت ليل المانوية فليكن ... على سر أهل الشر منك ستار
على الفتك ياضنكان صحت عزيمتى ... وإن لم يكن بينى وبينك ثار
سأقتل ضيفى وابن عمى ومالكي ... على أن عقبى القاتلين خسار

قال هذا فى مناجاة « مكبث » لنفسه قبل أن يقدم على الفتك بضنكان . والقصيدة مطولة نشرتها جريدة الاهرام منذ بضع سنين .

غير أن كتاب المسلمين استعملوا لفظ « زنديق » مطلقاً من غير تحديد على فئات من الخارجين عن الاسلام ، فكان يعنى به أتباع « زرادشت » آونة ، أو النصارى آونة أخرى ، وكثيراً ما كان يعنى به المجوس ، عبدة العناصر .

ومما يستدل به الكتاب على زرادشتية ابن المقفع واتخاذه الاسلام ستاراً

---

(١) ظهر مانى فى أيام سابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور سنه ٢٧٧ للميلاد . وأخذ دينا بين الماجوسيه والنصرانيه وكان يقول بنبوة عيسى وينكر نبوة موسى عليهما السلام . قال صاحب الفهرست ان مانى زعم ان العالم موضوع من أصلين قديمين هما النور والظلمه وأنهما أزليان سرمديان وأنه ما من شيء الا وهو فى الاصل قديم . على ان تقديس المانويين لليل امر معروف

روايه رواها بعض الكتاب اذ ذكر أن ابن المقفع مر يوماً ببيت من بيوت النار فتمثل بقول الاحوص :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إنى لامنحك الصدود وإننى قسما اليك مع الصدود لاميل

وقيل إنه كثيرا ما كان يقول :

الارض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

على أن ابن المقفع قد نقل بالفعل شيئاً من مبادىء المانوية عن تعاليم « مانى بن فاتك » وكتب « بن ديسان » الى العربية . بذلك يقول المسعودى جزء ٨ ص ٢٩٣ . طبع ليبزج م

وفي زمان الخليفة المنصور نقلت كتب عديدة الى العربية عن اليونانية والفارسية والسريانية . على أن الكتب التى نقلت عن الفارسية والسريانية لم تكن في أصلها الا تراجم عن اليونانية .

وأشهر ماترجم ابن المقفع كتاب « كليلة ودمنة » أو كما كان يدعى فى الفهلوية والسنسكريتية القديمة « أساطير الفيلسوف بيدبا » . ترجم ابن المقفع هذا الكتاب وكان قد نقل لكسرى أنو شروان الى اللغة الفهلوية عن السنسكريتية، لغة الهند القديمة، نقله الحكيم « برزويه » بعد أن سافر الى بلاد الهند في طلبه واستنسخه من الخزانة الملوكية مع طائفة أخرى من كتب الهند .

ولقد فقد الاصل الفهلوى . غير أن المبشر « بوز » النسطورى كان قد ترجم الكتاب الى السريانية سنة ٥٧٠ م . وطبعت هذه الترجمة بعناية المستشرقين « بيكل » Bickell و « بنفى » Benfey سنة ١٨٧٦ وكذلك فقد الاصل السنسكريتى القديم ولم يبق منه الا آثار نشر بعضها في كتاب « بانشاتنترا » Panchatantra وهو يحتوى على الاساطير الخامسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة والسابعة عشرة ، وبعض منها في كتاب « ماهابهارتا »

Mahabharta وهو يحتوى على الاساطير الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة .

ويجمع المستشرقون أو هم يكادون يجمعون ، على أن ترجمة « بوز » النسطورى لكتاب « بيدبا » المنقولة الى السريانية عن الفارسية ، المأخوذة بدورها عن الاصل السنسكريتى ، هي الترجمة الخالية من آثار الوضع والحذف والاضافة . أما النسخة العربية التى نقلها ابن المقفع فظاهر فيها من اثار الانتحال مايظهر فى كل التراجم السريانيه التى ظهرت فى أواخر العصر السريانى ، وفي كل التراجم التى اخذت عن النسخه العربيه الى الفارسيه الحديثه ، والى اللاتينيه والعبريه والاسبانيه والانجليزيه والفرنساوية والالمانيه واليونانيه . على انه لولا الترجمة العربية ، لما نال هذا الكتاب ذلك الصيت البعيد . واسلوب ابن المقفع فى كليلة ودمنه يعد مثال الاساليب العربيه المنتقاة.

وعاش ابن المقفع أكثر من عمره في زمان الخليفة المنصور العباسى . ويقول المسعودى (جزء ٨ ص ٢٩١ — ٢٩٢ طبع ليبزج) أن ذلك الزمان كان خصيباً في الترجمة والانتاج الأدبى ، فنقل فيه عدة مقالات عن أرسطوطاليس ، وكتاب المجسطى لبطليموس فى الفلك ، وكتاب أقليدس في الهندسة ، ومواد أخرى عن اليونانية .

***

في سنة ١٥٦ للهجرة (١) وفد هندى الى بغداد يحمل مقالة فى الرياضيات ، وأخرى في علم الفلك . أما الثانية فكانت مقالة « سدهانتا » Siddhanta التى

---

(١) هذا قول بن القفطى (ص ٢٧٠ من طبعة ليبسك أو ١٧٧ من طبعة مصر) فهو يقول سنة ١٥٦ هـ — (٧٧٣ م) نقلا عن الزيج الكبير للحسين بن محمد المعروف بابن الآدمي المتوفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى . أما البيرونى فيقول فى كتابه تحقيق ماللهند من مقوله مقبولة فى العقل أو مرذولة المطبوع بلندن سنة ١٨٨٧ ص ٢٠٨ أن ذلك وقع سنة ١٥٤ هـ — (٧٧١ م .)

عرفها العرب من بعد باسم كتاب « السند هند » وترجمها « ابراهيم الفزارى » فكان نقلها بداءة عصر جديد في دراسة هذا العلم عند العرب.

قال الاستاذ نلليتو .

«وما اقتصر الخليفة المنصور على مجرد أحكام النجوم وما يتعلق بها ضروريا ، بل منذ تأسيس بغداد بسنين قليلة بادر إلى أحياء علم الهيئة المحض مستقيا من موارد الهند . والذى دعاه الى ذلك أن رجلا هنديا جاء بغداد فى جملة وفد السند على المنصور وهو ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء أمته وخصوصاً على مذهب كتاب باللغة السنسكريتية اسمه «ابراهمسبهطسدهانتا» Brahamasphutasiddhanta ألفه سنة ٦٢٨ م — (٦ أو ٧ هـ) الفلكي والرياضى الشهير «برهمكبتا »Brahmagupeta للملك « فيا كهرمكه » (١) وكلف المنصور ذلك الهندى باملاء (٢) مختصر الكتاب ثم أمر بترجمته الى اللغة العربية وباستخراج كتاب منه اتخذه العرب أصلا في حساب حركات الكواكب وما يتعلق به من الاعمال . فتولى ذلك الفزارى (٣) وعمل منه زيجاً اشتهر بين علماء العرب حتى أنهم لم يعملوا الا به الى أيام المأمون ، حيث ابتدأ انتشار مذهب بطليموس فى الحساب والجداول الفلكية »

«أما لفظ سدهانت Siddhanta فمعناه بالسنسكريتية معرفة وعلم ومذهب علمى وأطلق ذلك اللفظ اصطلاحا على كل كتاب في علم الهيئة وحساب حركات

---

(١) Vyaghramukha وهو الملك فيغر المذكور فى كتاب ابن القفطى ٢٧٠ طبعة ليبنرج أو ص ١٧٧ طبعة مصر .

(ملحوظة) فهرست أبواب كتاب السند هند وهى أربعه وعشرون توجد فى ص ٧٤ من كتاب البيرونى المسمى تحقيق ماللهند من مقولة .

(٢) راجع كتاب البيرونى فى تحقيق ماللهند من مقوله ص ٢٠٨ و ٢١١ .

(٣) سماه ابن القفطى (ص ٢٧٠ ليبزج و١٧٧ مصر) محمد بن ابراهيم الفزارى . فلراجع ماسأقوله فى ذلك عن قريب .

الـكواكب . فمعنى «ابراهمسبهطسدهانتا» كتاب الهيئة المصحح المنسوب الى «برهم» وحذف العرب ثلثي اللفظ مقتصرين على الثلث الاخير وهو «سد هانت» ثم حرفوه قليلا لميلهم الى المزاوجة والاتباع فى الـكلام وضبطوه على وزن أسماء البلاد التى نقل منها الـكتاب فقالوا السند هند، وسماه بعض المتأخرين السندهند الـكبير، تمييزاً بينه و بين السندهند تأليف محمد بن موسى الخوارزمى في عهد المأمون . وأخطأ مؤلفو العرب في قولهم إن تفسير (سندهند) هو «الدهر الداهر» (١) أو (دهر الدهور) (٢) وسبب ظنهم هذا ماسأشرحه عن قليل من استعمال أدوار سنين لحساب حركات الـكواكب في كتاب السند هند . ولم يصب البيرونى اصابة تامة فى (كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٣) — «والذى يعرفه أصحابنا (٣) سند هندا هو سدهاند أى المستقيم الذى لا يعوج ولا يتغير . ويقع هـذا الاسم على كل ماعلت رتبته عندهم (٤) من علم حساب النجوم وان كان قاصراً على زيجاتنا » أما ماقاله المسعودى في أول الباب السابع من كتاب مروج الذهب (ج أول ص ١٤٩ الى ١٥٠ من طبعة باريس) فا كثره خرافات واغلاط لانه خلط «برهمن» (وهو أحد آلهة الهند «بيرهمكبت» صاحب كتاب السندهند ثم عكس الترتيب التاريخى الحقيقى للـكتب التى ذكرها (٥) لانه أقدمها فى الحقيقة كتاب المجسطى والثانى لارجبهر والثالث السندهند والرابع الاركند» (٦)

---

(١) هكذا ابن القفطى ص ٢٦٦ و ٢٧٠ طبع ليبزج (ص ١٧٥ و ١٧٧ من طبعة مصر) نقلا عن زيج بن الآدمي .

(٢) هكذا المسعودى فى الباب السابع من كتاب مروج الذهب ج ١ ص ١٥٠ من طبعة باريس ومن كتاب التنبيه ص ٢٢٠

(٣) أى العرب

(٤) أى عند الهند

(٥) ويوجد ايضا هذا الترتيب المعكوس فى كتاب التنبيه ص ٢٢٠

(٦) ترتيب كتب الفلك حسب أقدميتها لا يترتب عليه انها عرفت عند العرب بهذا الترتيب، فلا شك مثلا فى أن كتاب السند هند عرف عندهم قبل كتاب المجسطى لبطليموس وان كان فى الطبقة الثالثة من الاقدمية والمجسطى فى الطبقة الاولى — مظهر

« وطريقة الكتب الهندية فى تعليم حساب حركات الاجرام السماوية طريقة غريبة مبنية على ما يسمى بالسنسكريتية « كلپ » (١) وهي جملة الوف الوف أدوار تامة للنيرين والكواكب الخمسة المتحيرة. فان الهند زعموا أن كل الكواكب غير الثابتة خلقت مجتمعة مع أوجاتها وجوزهراتها في أول برج الحمل، أعنى فى منطقة الاعتدال الربيعى، ثم أخذت تتحرك حركات مختلفة السرعة، وبعد الوف الوف أدوار تامة ستجتمع كلها ثانية في أوجاتها وجوزهراتها في أول الحمل (٢) وجملة السنين الشمسية النجومية (٣) الفائتة بين الاجتماعين الكليين تسمى « كلپ ». وعدد سنى « كلپ » النجومية على حساب كتاب « برهمكبت » أربعة آلاف الف الف وثلثمائة وعشرون الف الف — (٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠) فيتمم مثلا فيها عطارد سبعة عشر الف الف الف وتسعمائة وستة وثلاثين الف الف وتسعمائة وثمانية وتسعين الفاً وتسعمائة وأربعة وثمانين (١٧٩٣٦٩٩٨٩٨٤) دوراً تامة ويتمم أوجه ثلاثمائة واثنين وثلاثين دوراً تامة . »

---

(١) Kalpa

(٢) ولذلك قال ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء ص ٥٠٤ من طبعة ليدن سنة ١٩٠٤م (وهذا النص ناقص من طبعة مصر سنة ١٣٢٢ التى لا تحتوى على كل التراجم): « وأصحاب الحساب يذكرون أن الله تعالى حين خلق النجوم جعلها مجتمعة واقعة فى برج ثم سيرها من هناك وانها لا تزال جارية حتى تجتمع فى ذلك البرج الذى ابتدأها فيه واذا عادت اليه قامت القيامة وبطل العالم . والهند تقول انها فى زمان نوح اجتمعت فى الحوت الا يسيرا منها فهلك الخلق بالطوفان وبقى منهم بقدرما بقى خارجا عن الحوت. ولم أذكر هذا لانه عندى صحيح، بل أردت به التنبيه على البيت » يريد بيتا من شعر أبى نواس .

ويقول الأستاذ نللينو :

« وانى أظن أن الهند انما أخذوا مثل هذه الاعتقادات عن قدماء بابل. فنستفيد مثلا من « سنكا » اللاتينى الشهير Seneca, Naturales Quaestiones III.P,29, ان بروسوس Berossos الكاهن البابلي النابغ سنة ٢٧٥ ق.م قال فى كتابه عن قدماء أهله يكون الطوفان كلما اجتمعت الشمس والقمر والكواكب الخمسة المتحيرة فى برج الجدى ويكون الحريق العام كلما اجتمعت فى برج السرطان . ومن الغريب أن الذين اعتنوا بنص سنكا ذلك حديثا لم يفهموا حقيقة معناه وانه من باب مذهب القرانات العظمى المشهورة عند أصحاب أحكام النجوم فليصحح ماقاله شنابل الالمانى: Schnabel ; Apokalyptisch Berechnung der Enbzeiten bei Berossos Orientalistische Literaturzeitung, September 1910 col 402)

(٣) السنة النجومية (Anné siderale) هى الزمان الذى تستغرقه الشمس للرجوع الى نجم ثابت مفروض . وهى أطول من السنة الانقلابية بشىء يسير جدا.

« فسمت العرب جملة سنى « كلپ » سنى السند هند (١) وجملة الايام أيام السندهند وأيام العالم .(٢) — وتسهيلا للحساب ربما اتخذ الهند جزءاً من الف جزء من « كلپ » أصلا لحساباتهم وسموا ذلك الجزء (مهايك) (٣) أو (يك) (٤) فصار عبارة عن مدة أربعة آلاف الف وثلاثمائة واثنين وثلاثين الف سنة . إلا أن الادوار فيه غير تامة بسبب الكسر الناشيء عن القسمة . وبما أن أحد حكماء الهند الذين ذهبوا الى هذه الطريقة وعليها بنوا الحساب هو آريبهط (٥) المسمى عند العرب بالارجبهر (٦) اشتهرت جملة سنى (يك) عند العرب باسم « الارجبهر » أو أيام الارجبهر (٧) و بعض العرب القدماء زعموا أن الارجبهر اسم الجزء من الف جزء من سنى السندهند (٨) بل انه اسم كتاب مستخرج من كتاب السندهند (٩) مع ان الاول أقدم من الثانى . »

---

(١) قال البيرونى فى كتاب تحقيق ماللهند من مقولة ص ١٦٩ (كلپ وهو الاسم الذى يسميه أصحابنا سنى السندهند (٢) البيرونى ص ١٨٥ وكتاب التنبيه للمسعودى ص ٢٢٠ و ٢٢١

(٣) mahayuga (٤) yuga (٥) Aryabhata الف كتبه فى أواخر القرن الخامس للمسيح

(٦) ان العرب فى الالفاظ الهندية بدلوا أكثر الياءآت الاصلية جيما وكذلك فى هذا الاسم أما الراء الاخيرة فقال البيرونى ص ٢١١ : (آرجبهد .. والهند يخرجون هذه الدال فيما بينها وبين الراء . فانتقل الى الراء وصار آرجبهر) أما الارجبهز بالزاى كما يوجد أحيانا فتصحيف

(٧) كتاب الآثار الباقية للبيرونى ص ٢٥

(٨) قال البيرونى فى كتاب تحقيق ما للهند من مقولة ص ٢١١ ان الفزارى ويعقوب ابن طارق ممن ذهبوا الى ذلك الظن .

(٩) قاله المسعودى فى مروج الذهب ج ١ ص ١٥٠ . وروى فى التنبيه ص ٢٢٠ (كيف عملت الهند كتاب الارجبهر من كتاب السند هند . والارجبهر جزء من الف جزء من السندهند) . وفى كتاب « البدء والتاريخ » للمطهر بن طاهر المقدسى ج ٢ ص ١٤٦ من طبعة باريس سنة ١٩٠١ « الصنف الثانى أصحاب الارجبهر جعلوا سنى عالمهم أربعمائة الف واثنين وثلاثين الف سنة وسنو هذه الفرقة جزء من عشرة آلاف جزء من السند والهند (هكذا) . ولكن فى هذا النص نقص ظاهر لعدم ذكر الصنف الثالث بين الثانى والرابع فالمحتمل أنه سقط شيء بعد « عالمهم » وان الباقى وصف الصنف الثالث ولا وصف صنف اصحاب الارجبهر . وعدد ٤٣٢٠٠٠ سنة يوافق عدد السنين المسماة هازروان عند الهند التى بنى عليها يعقوب بن طارق حساب أوساط الكواكب فى زيجه (اطلب ما نقول فى يعقوب بن طارق ص ١٦٧) — ومن الغريب أن المسعودى فى مروج الذهب ج ١ ص ١٥٢ سمى هازروان جملة (٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠) سنة « مدة ستة وثلاثين الف سنة مضروبة فى اثنى عشر الف عام وهذا عندهم هو الهازروان » وكذلك فى التنبيه ص ٢٠١ و ٢٢١ . ولكن من دون ذكر اسم الهازروان . ولعل الصحيح فى « اثنى عشر عاما » أى ٤٣٢٠٠٠٠٠٠٠ انتهى

أما المقالة الرياضية التى وفد بها ذلك الهندى مع كتاب (السند هند) فكان لها أثر كبير فى درس الرياضيات ، ولو لم يكن لها من أثر إلا ادخال الارقام الهندية واتخاذها أساساً للعدد فى العربية ، لكفى بذلك أثراً خالدا . فقد تطور على أثرها علم العدد عند العرب وسار بتلك الخطى الحثيثة التى كان يعوقها دائما استعمال العرب لغير الهندية من الارقام المعقدة المهوشة

وهنا يحق لنا أن نتساءل: «ماذا كان أثر ذلك على العقل العربى ؟ وماذا ترك من الآثار ؟ »

يخطر على البال عند هذا السؤال علم الجبر . على أن لعلم الجبر تاريخا يتقدم وجود العرب . لهذا نتكلم باختصار لنعرف تاريخ نشأته وكيف انتقل الى العرب وماذا كان أثرهم فيه ؟

نتساءل في أى عصر وفي أية بقعة من بقاع الارض وجد علم الجبر ؟ ومن هم أول الذين كتبوا فيه ؟ وكيف نشأ ؟ و بأية وسيلة من الوسائل وفي أى عهد من التاريخ ذاع ذلك العلم ؟

كان الاعتقاد السائد في القرن السابع عشر أن رياضيي اليونان لا بد من أن يكونوا قد استكشفوا تحليلا دقيقاً لطبيعة علم الجبر على الصورة التى عرف بها فى الاعصر الحديثة ، و به استطاعوا أن يحلوا تلك المعضلات التى لا يسعنا الا الاعجاب بثبات قدم كتابهم فى معالجتها ، وأنهم أخفوا طرق التحليل وأظهروا النتائج فقط .

على أن هذه الفكرة قد تبددت الآن ؟ فقد دلت المستكشفات الحديثة على أن رياضي القدماء كان عندهم طريقة للتحليل ، ولكنها اقتصرت على الهندسة ، وانهم لم يعرفوا من الجبر على صورته الحديثة شيئاً . غير أنه إن لم يثبت لدينا أن متقدمى الاغريق كانوا على علم بالتحليل الجبرى ، فاننا نجد فى عصورهم الاخيرة آثاراً تدل على أن مبادىء التحليل الجبرى كانت معروفة لديهم .

في أواسط القرن الرابع الميلادى ، وهو عصر بلغت فيه الرياضيات أحط دركاتها ، قنع المشتغلون بذلك العلم بأن يعلقوا على ما كتب الذين تقدموهم . على أنه بالرغم من ذلك بدأ علم الجبر يتبوأ المكان اللائق به بين العلوم والمعارف الانسانية :

في ذلك الحين كتب الرياضى « ذيوفانتس » الاغريقى Diophantes كتابا فى علم العدد ، كان يتكون من ثلاث عشرة مقالة ، لم يصل الينا منها سوى المقالات الست الاولى ، ومقالة ناقصة ، يظن أنها المقالة الثالثة عشرة من الكتاب الاصلى . غير أن هذا الكتاب لايكون مقالة تامة فى علم الجبر ، ولكنه يضع أساساً ثابتاً يمكن أن يقوم عليه ذلك العلم . فان المؤلف بعد ان كتب قليلا في المعادلات البسيطة والمعادلات الرباعية ، عاد الى الكلام فى مسائل رياضية أخرى ، ذات علاقة مباشرة أو غير مباشرة بعلم الجبر .

قد يصح أن يقال إن « ذيوفانتس » هو واضع علم الجبر فى اللغة اليونانية وبين الاغريق . غير أن الدلائل تدل على أن المبادىء الاولية التى بنها فى كتابه كانت معروفة من قبل ، وأنه اتخذها قاعدة بنى عليها كثيراً فيما كتب ، وأنه ابتكر فيها مبتكرات ذات بال . ومن الثابت أن هذا العلم ظل واقفاً عند الحد الذى تركه فيه « ذيوفانتس » حتى نقلت مقالاته الى ايطاليا في بدء النهضة العلمية .

وعلقت السيدة (هيباشيا) Hypatia (١) ابنة ثيون Theon على كتاب (ذيوفانتس) ، غير أن هذا التعليق فقد الآن ، كما فقدت مقالتها على كتاب (أبولونيوس) Appolonius في القطوع المخروطية . وهي سيدة من ذوات النبوغ

---

(١) هيباشيا (٣٧٠ — ٤١٥) ب م من كبار من اشتغل بالرياضيات والفلك . ولدت بالاسكندريه وعاشت بها . وهى ابنة ثيون Theon وكان فيلسوفا رياضيا وقد علق على مبادىء اقليدس وعلى كتاب المجسطى فى الفلك . ويقال بان لابنته أثرا كبيرا فى هذه التعليقات المدرسيه . وكان قد اعترف بها كرئيسة لجماعة الافلاطونيين الذين كان يطلق على مذهبهم اسم الافلاطونيه الجديدة . وكانت على جانب كبير من العلم والفصاحة وبلاغة التعبير .

ذهبت ضحية الجهل والتعصب الديني في أوائل القرن الخامس الميلادي (١)

ويدعى هذا الكاتب عند العرب (ذيوفنطس) : وجاء في اخبار الحكماء ص ١٢٦ أنه (ذيوفنطس) اليوناني الاسكندراني فاضل مشهور في وقته وتصنيفه وهو صناعة الجبر ، كتاب مشهور مذكور خرج الى العربية وعليه عمل أهل هذه الصناعة . فكأن ذيوفانتس كان من نوابغ مدرسة الاسكندرية في أوائل القرن الخامس الميلادي .

كان أول ما كشف كتاب (ذيوفانتس) الذي المعنا اليه مكتوبا باللغة اليونانية في أواسط القرن السادس عشر الميلادي في مكتبة قصر الفاتيكان . والراجح أن يكون قد نقل اليها عند ما سقطت القسطنطينية في يد محمد الفاتح

وترجمه الكاتب (كزيلاندر) Xylander سنة ١٥٧٥ الى اللاتينية وأذاعه في العالم اللاتيني . وتبع ذلك ترجمة أخرى أتم من الاولى وضعها (باشيه ده ميزريا) Bachet de Mezeriac سنة ١٦٢١ ، وهو من أقدم الاعضاء الذين أسسوا الاكاذيمية الفرنسوية . وكان (ميزريا) رياضياً كبيراً ، فاعانه ذلك على فهم المسائل التي عرضت له في الكتاب فكان في النقل أثبت . غير أن متن ذيوفانتس كان من النقص والبلى بحيث لم يستطع أن يفهم المترجم قصده في بعض المواضع تاما ، فكان يحدس المعنى أو يتمم النقص ظناً . وبعد ذلك بقليل أضاف الرياضي الفرنسوي مسيو (فرما) M. Vermat إضافات كثيرة على تعليقات (ميزريا) تناول فيها سير من كتب من اليونان في علم العدد . والنسخة التي طبعها

---

(١) والمحقق تاريخيا أن كتاب أبولونيوس قد ترجم الى اللغة العربية . فقد وجدت نسخه من الكتب السبعة الاولى منه ، لانه مقسم الى ثمانية كتب ، سنة ١٦٥٨ . وكان مسيو بورلى أول من عثر عليها في مكتبة فلورنسا . وفي ذلك الحين عاد الاستاذ غولبوس استاذ اللغات الشرقية في مدرسة ليون من الشرق بنسخة عربية من الكتب السبعة وقال ان الثامن لم يترجم الى العربية . ويذكر الاستاذ الدكتور ضروف انه رأى نسخة من كتاب القطوع المخروطية حروفها بلا نقط وأرقامها حروف في مكتبة المدرسة الكلية ببيروت سنة ١٨٨١ ويرجح أنها نسخة الطوسي . (راجع المقتطف ص ٤٠٥ مجلد ٣٨) .

(فرما) Verma تعتبر أتم طبعات الكتاب إتقانا . على أن الترجمة اللاتينية لم تكن أول ترجمة ظهرت لذلك الكتاب . فان العرب كانوا أول من ترجمه :

ان كتاب (ذيوفانتس) ان كان ذا شأن كبير في تاريخ علم الرياضيات، فان أوروبا الحديثة لم تتلق ذلك العلم بداءة ذى بدء عنه ، بل عن طريق العرب . فان العرب كانوا بعد اليونان أول من عرف للعلوم قيمتها الحقيقية ،فى ذلك الزمان الذى كانت فيه أوروبا غارقة في ظلمات الجهالة ، فحملوا أمانة العلم ، وأدوها للذين من بعدهم كاملة غير منقوصة ، بل مزودة بثمار العقل العربي .

ولقد ثبت من التقاليد التاريخية أنهم صرفوا أكبر عناية في جمع ما كتب رياضيو اليونان وترجموا كتبهم وكتبوا عليها تعليقات وشروحا ذات أثر كبير فى تقدم علم العدد . يكفى فى الدلالة على ذلك أنه لولا ما كتب العرب فى تلك العلوم لما عرفت أوروبا شيئاً عن هندسة اقليدس مثلا

ينسب العرب استكشاف الجبر عادة الى أحد رياضيهم ، محمد بن موسي ، الذى عاش فى أواسط القرن التاسع الميلادى في عهد الخليفة المأمون العباسى ، والمحقق تاريخياً أن « محمد بن موسى » ألف مقالة في الجبر . فان ترجمة لاتينية لتلك المقالة كانت قد أذيعت فى عصر النهضة العلمية في أوروبا .غير أنها فقدت. على أن القدر قد حفظ نسخة من الاصل العربى لا تزال في مكتبة « بودلى » بجامعة اكسفورد ، ويقال فيها أنها نسخت سنة ١٣٤٢ ميلادية ، وينوه ناسخها فى أول صفحة من صفحاتها بأن كاتبها فلان « العربى القديم »وعلى هامش تلك الصفحة تعليق فيه ما يدل على انها أول مقالة كتبت في الجبر وأذيعت بين « المسلمين » . أما المقدمة فضلا عن تعريفها بالمؤلف فانها تثبت أن « محمداً بن موسى » كان يحثه الخليفة المأمون العباسى على أن يجمع فى كتاب واحد ما تناثر خلال كتب الرياضة من مبادىء الحساب الجبرى . وكانت هذه الفقرة سبباً فى أن يعتقد الباحثون في تاريخ العلوم أن « محمداً بن موسى » جمع كتابه هذا جمعاً

من عدة مؤلفات كانت متداولة بين أيدى طلاب العلم فى البلاد العربية أو من مؤلفات وصلت اليهم فى لغات أخرى .

على أننا لا نجد من دليل يؤيد وجهة نظر الآخذين بهذا الرأى. فانه لم تجر عادة المؤلفين لا من العرب ولا من غيرهم أن يعرفوا بأنفسهم فى مقدمات يضعونها لمؤلفاتهم . إذن فمقدمة كتاب « محمد بن موسي » التى يعثر فيها على ذلك القول من عمل غيره . والراجح أيضاً أنها وضعت لنسخة نسخت من الكتاب بعد زمان « محمد بن موسى » أو فى سنى حياته ثم تداولتها الايدى بالنقل حتى وصلت الى مكتبة « بودلى » . ولهذا نرجح أن كتاب « ابن موسى » لا يمكن أن تميز فيه ناحية النقل عن ناحية الابتكار الصرف .

يؤيد هذا الرأى أن « محمداً بن موسى » كان متضلعا فى علم الفلك ، عارفا بما وصل اليه أهل الهند فى علم العدد والحساب . فالراجح أن يكون قد نقل عن الهند وأخذ عنهم . ولقد ثبت بمالا سبيل الى ادحاضه أن أهل الهند كانوا على علم بالجبر، بل عرفوا كيف يحلون القضايا غير المحدودة Intermediate problems لذلك يمكن أن يقال ترجيحا ان الجبر العربى منشؤه الهند أصلا . ولقد عرفنا كيف أن العرب مدينون لذلك الهندى الذى وفد الى بغداد بمقالة « السند هند » فى الفلك وتلك المقالة الرياضية التى اقتبسوا منها الارقام الهندية .

الا أن العرب لم يقفوا عند حد النقل عن الامم الاخرى . فان التحليل الجبرى ما كاد يقع فى أيديهم حتى أخذ كتابهم فى الزيادة اليه وتنميته . فان محمداً أبو الوفا الذى عاش خلال العقود الاربعة الاخيرة من القرن العاشر الميلادى كتب تعليقات على المؤلفات الرياضية التى خلفها من تقدمه من الكتاب والباحثين وكذلك ترجم كتاب « ذيوفانتس » . وكان آخر عهد للعرب بالتأليف فى علم الجبر سنة ١٠٣١ ميلادية — ٤٢٣ هـ . على أنهم تركوا علم الجبر كما خلفه « محمد ابن موسى » وأبو الوفا ، ولم تحدث ترجمة كتاب ذيوفانتس من أثر كبير

بينهم . وقد جاء في المقتطف : مجلد ٢٨ ص ٣٨٥ مايأتي:

«وقد اشتغل الهنود والعرب بعلم الجبر . غير أنهم لم يضيفوا الى موضوعات اليونان فيه شيئا يذكر ولم يستعملوه الا في حل المسائل العددية و بقي عندهم مسلكا متوعراً وهم يعتبرونه حسابا عاليا . »

ولعل السبب في ذلك يرجع الى أن كتاب ذيوفانتس لم ينقل الى العربية الا في عصر كان العقل العربي قد أخذ يتمشى فيه مرة أخرى نحو الغيبيات .

وجاء في المقتطف مجلد ٢٨ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ مايلي:

« واقدم ما انتهى الينا من أمر الجبر مؤلف وضعه ذيوفنطس (Diophante) المتوفي سنة ٤٠٩ م في ثلاثة عشر كتابا لدينا منها ستة فقط والسبعة الباقية مفقودة ومباحث الستة الاولى هي في المعادلات البسيطة والسيالة من الدرجة الاولى لمجهولين فقط يتبعها مسائل منشورة مع حلها والمجهول في جميعها دليله واحد . ثم كتاب في المعادلات المفردة من الدرجة الثانية اى ما كان المجهول فيها مربعا فقط مع حل بعض المسائل من هذا القبيل. ولعل السبعة المفقودة فيها مسائل اكثر صعوبة مما ذكر لان درجة الكتب ترتفع بالتدريج في الستة الموجودة. ولم يسبقه أحد الى استعمال العلامات بل هو أولُ من نبه اليها فاستخدم الخط القصير علامة للطرح ».

«وفي سنة ٥٠٧ م. نشر (براهما غوبتاً) Brahmagupta . الهندي كتابا في الحساب والجبر يلحقهما ذيل في الهندسة . وهو كتاب نفيس في بابه حمل الكثيرين على القول بان علم الجبر كان راقيا درجة سامية بين الهنود قبل (برهما غوبتاً) ودعا آخرين الى القول بان هذا الهندي هو واضع علم الجبر دون غيره . ولعله اطلع على كتاب ذيوفنطوس اليوناني . فان كان ذلك فالواضع هو ديوفنطوس وحده • الافيكون« برهما غوبتا» قد نازعه الشرف والفخر في وضع هذا الفن. أما كتاب الرياضي الهندي فيشبه كتاب ديوفنطوس في كثير من الوجوه ولا يزيد عنه شيئاً وهذا حمل البعض على القول بانه منقول عنه . ويعزز هذا الزعم قصر باع الهنود في سائر

العلوم الرياضية كالهندسة والهيئة عما لليونان فيه المبلغ الاعلى والخطة المثلى . فلو كان الهنود أهل اكتشاف في الرياضيات لاكتشفوا في الهندسة وهي أقرب لى الحاجة من الجبر . »

«وفى أواخر القرن الثانى عشر نشر بهسكارا Bhascara الهندى كتابا شرح فيه كتابا (برهما غوبتا) مع بعض اضافات تناولها من العرب أو من نفسه وبهذا الشرح عظم امر الجبر الهندى وارتفع شأنه بين الامم فترجم هذا الكتاب الى لانكليزية بصور شتى اذ ترجمه عدد ليس بقليل من الراغبين فى نشره »

«ثم بعد برهما غوبتا بزمن طويل أى فى الربع الاول من القرن التاسع الميلادى نشر محمد بن موسى الخوارزمى قيم خزانة كتب المأمون كتابا بأمر المأمون في الجبر والمقابلة وهو أول كاتب كتب بالعربية فى هذا الفن فهو واضع الاصطلاحات الجبرية وهو الذى اعطاه هذا الاسم العربى الذى نقله الافرنج بلفظه عن عرب الاندلس وعرب المشرق حتى خيل للكثيرين أن العرب هم واضعو الجبر وانه لم يسبقهم اليه أحد»

« وقد اشتهر هذا الكتاب في الشرق والغرب وطار ذكره في جميع الاصقاع وكثرت شروحه وترجماته الى لغات كثيرة فى أزمنة مختلفة وكان هو المعول عليه في هذا الفن مدة طويلة ولايشك الاوروبيون اليوم أن محمد بن موسى أخذ هذا العلم عن الهنود واليونان فهو كان قيم خزانة الكتب في بغداد وله الاستطاعة أن يستنبث ركازها ويقف على محتوياتها »

«اما ابحاث الكتاب فهى الجمع والطرح والضرب للكميات الحاوية مجهولا واحدا أو جذر المجهول أو مربعه . وطرائق الجمع والطرح موضحة بخطوط يعبر بها عن القيم ، وفيه بعض أمثلة على المعادلة المفردة من الدرجة

الثانية محاولة بعد إيضاحات طويلة مبهمة وفيه باب التجذير والترقية للكميات ذات الحد الواحد.»

«وقام بعده تلميذه «ثابت بن قرة» فالف كتابا بين فيه كيفية استخدام الجبر فى الهندسة وجمع بين الاثنين. وكثرت بعدهما كتب العرب في هذا الفن. غير أن جميع ما الف بعدهما لم يخرج عما وضعه محمد فى كتابه الاول فكلهم نقلوا عنه كما نقل هو عمن سبقه من الهنود واليونان»

* * *

وفد ذلك الهندى الذى حمل مقاله السند هند والمقالة الرياضية الى بغداد سنة ١٥٦ هـ. ٧٧٢م وكان من أثرهما ماوصفنا. أما كبار فلكيي العرب فلم يظهروا الا بعد ذلك بنصف قرن ونيف. وكان أولهم أبومعشر البغدادى تلميذ الكندى وقد توفي سنه ٢٧٢ من الهجرة ٨٨٥م. وذكر بن خلكان فى الجزء الاول من تراجمه ص ١٤٠ (طبع مصر) أن اسمه ابو معشر جعفر بن محمد بن عمر البلخى المنجم، وأن من تصانيفه كتاب المدخل وكتاب الزيج وكتاب الالوف. أما في العالم اللاتينى فيعرف باسم «أبومازار» Abumazar

ومن بعده محمد بن جابر المتوفي سنة ٣١٧ من الهجرة ٩٢٩ م. ويعرف في المؤلفات اللاتينية باسم «البتاغنيوس» Albategnius لأنه كان يلقب «بالبتانى» نسبة الى بلدة «بتان» في مابين النهرين. ونقل بن القفطى أن البتانى صائبى من حران ابتدأ الرصد سنة ٢٦٤ — ٨٧٧ م. الى سنة ٣٠٦ — ٩١٨ م. وأمضى ذلك العهد في مدينتى الرقة على الفرات، وفي انطاكية بسوريا. وله من الكتب زيجه المشهور المسمى «زيج الصابى» أصله العربى محفوظ في مكتبة الفاتيكان، وطبعه فى ترجمة لاتينية «أفلاطون تبيرتينوس» Plato Tiburtinus في نورمبرج سنة ١٥٣٧ تحت عنوان De Scinetia Stellarùm وأعيد طبعه فى بولونيا Bologna سنة ١٦٤٥. ومن بين مؤلفاته التي لم تطبع تعليقات على كتاب

لمجسطى ، وشرح مقالات بطليموس ، ومقالة له فى الفلك والجغرافية . وأصلح زيج بطليموس الزمنى لأنه لم يكن مضبوطا ، وزيجه أضبط ماوجد من نوعه عند العرب. وله عدة مستكشفات رياضية وفلكية ظلت العمدة فى علم الفلك عهداً طويلا فى القرون الوسطى ، وفى مدارس أوروبا على الأخص . وكان يلقب ببطليموس العرب لثبات قدمه فى علم الفلك وتضلعه فيه .

وذكر ابن خلكان (بمجلد ثامن ص ١١٧، ١١٨ طبع مصر) أنه توفى سنة ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م عندرجوعه من بغداد بموضع يقال له « قصر الحضر» ؛ وقال بأن الزيج نسختان أولى وثانية ؛ وأن الثانية أضبط وأجود . ولا أعلم أية من النسختين هى المحفوظة فى مكتبة الفاتيكان .

وكذلك ذكر ابن خلكان أن له كتابا اسمه « معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك » ورسالة فى مقدار الاتصالات وكتاب شرح أربعة أرباع الفلك ورسالة فى تحقيق أقدار الاتصالات ، وأنه شرح أربع مقالات بطليموس . وترجمه ابن خلكان باسم — أبو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحرانى الأصل البتانى الحاسب المنجم .

قال ابن العبرى — « وفي سنة سبع عشرة وثلاثمائة مات أبو عبد الله محمد ابن جابر بن سنان الحرانى المعروف بالبتانى أحد المشهورين برصد الكواكب ، ولا يعلم أحد في الاسلام بلغ مبلغه فى تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها وكان أصله من حران صائباً . »

وجاء في الزيج الصابى الذى طبع حديثاً برومية سنة ١٧٩٩ وكان قد ترجم الى اللاتينية وطبع بها سنة ١٥٣٧ (من المقدمة العربية) مايلى :

« إن من أشرف العلوم منزلة علم النجوم لما فى ذلك من جسيم الحظ وعظيم الانتفاع بمعرفة مدة السنين والشهور والمواقيت وفصول الأزمان وزيادة النهار والليل ونقصانهما ومواضع النيرين وكسوفهما وسير الكواكب في استقامتها

ورجوعها وتبدل أشكالها ومراتب أفلاكها وسائر مناسباتها . وانى لما أطلت النظر في هذا العلم ووقفت على اختلاف الكتب الموضوعة لحركات النجوم وما تهيأ على بعض واضعيها من الخلل فى ماأصلوه فيها من الأعمال وما ابتنوه عليها وما اجتمع أيضاً في حركات النجوم على طول الزمان لما قيست أرصادها الى الأرصاد القديمة وما وجد فى ميل فلك البروج على فلك معدل النهار من التقارب وما تغير بتغيره من أصناف الحساب وأقدار أزمان السنين وأوقات الفصول واتصالات النيرين التي يستدل عليها بأزمان الكسوفات وأوقاتها ، أجريت في تصحيح ذلك واحكامه على مذهب بطليموس فى الكتاب المعروف بالمجسطى بعد انعام النظر وطول الفكر والروية مقتفياً أثره متبعاً مارسمه إذ كان قد تقصى ذلك من وجوهه ودل على العلل والاسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسى العددى الذى لاتدفع صحته ولا يشك في حقيقته فأمر بالمحنة والاعتبار بعده. وذكر أنه قد يجوز أن يستدرك عليه فى أرصاده على طول الزمان كما استدرك هو على أبرخس (راجع القفطى ص ٥٥ و ٥١ طبع مصر) وغيره من نظرائه . ووضعت في ذلك كتاباً أوضحت فيه مااستعجم ، وفتحت مااستغلق ، و بينت ماأشكل من أصول هذا العلم وشذ من فروعه وسهلت به سبيل الهداية لم يأثر به ويعمل عليه فى صناعة النجوم وصححت فيه حركات الكواكب ومواضعها من منطقة فلك البروج على نحو ماوجدتها بالرصد وحساب الكسوفين وسائر مايحتاج اليه من الأعمال وأضفت الى ذلك غيره ممايحتاج اليه وجعلت استخراج حركات الكواكب فيه من الجداول لوقت انتصاف النهار من اليوم الذى يحسب فيه بمدينة الرقة وبها كان الرصد والامتحان على تحذيق ذلك كله . »

وحقق البتانى ما يلى : (عن المقتطف مجلد ٣٩ ص ١٤٨)

أولا — أن ميل فلك البروج على فلك معدل النهار هو ٢٣ درجة و ٣٥ دقيقة وكان أبرخس قد حسبه ٢٣ درجة و ٥١ دقيقة ، وهو الآن ٢٣ درجة ونحو

٢٧ دقيقة . وقد حسب علماء الفلك المتأخرون أنه يتغير قليلا ، وقد كان في زمن البتاني ٢٣ درجة ونحو ٣٤ دقيقة فأصاب في رصده وحسابه الى حد دقيقة واحدة

ثانياً — أن طول السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و٤٦ دقيقة و ٢٤ ثانية . وكان أبرخس و بطليموس قد حسباه ٣٦٥ يوماً و٥ ساعات و ٥٥ دقيقة و١٢ ثانية .وهو ٣٦٥ يوماً و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية. فأخطأ البتاني بمقدار دقيقتين و ٢٢ ثانية فقط. وسبب خطئه في اعتماده على رصد بطليموس لا من رصده هو.

ثالثاً — دقق في حساب أهليلجة فلك الشمس. فقال إن بعد الشمس عن مركز الارض اذا كانت في بعدها الابعد يساوى ١١٤٦ مرة مثل نصف قطر الارض واذا كانت في بعدها الاقرب يساوى ١٠٧٠ مرة مثل نصف قطر الارض واذا كان في متوسط بعدها يساوى ١١٠٨ مرات مثل نصف قطر الارض والنتيجة التي وصل اليها قريبة جداً مما وصل اليه العلماء الآن .

ويحله الاوروبيون في المحل الأرفع بين كل علماء الهيئة الذين ظهروا في كل العصور .

وفي حدود سنة ٨٢٨ للميلاد أمر الخليفة أبو جعفر المأمون بقياس درجة من الهاجرة لاستقراء حجم الكرة الأرضية وقام بهذا العمل أربعة من علماء الهيئة مدونة أسماؤهم في صفحات التاريخ .

قال أبو الفدا .

« قد قام بتحقيق حصة الدرجة طائفة من القدماء كبطليموس صاحب المجسطي وغيره فوجدوا حصة الدرجة الواحدة من العظيمة المتوهمة على الارض ستة وثلاثين ميلا وثلثي ميل . ثم قال بتحقيقه طائفة من الحكماء المحدثين في عهد المأمون وحضروا بأمره في برية سنجار وافترقوا فرقتين بعد أن أخذوا ارتفاع القطب محرراً في المكان الذي افترقوا منه . وأخذت احدى الفرقتين في المسير نحو القطب الشمالي والأخرى نحو القطب الجنوبي وساروا على أشد ما أمكنهم من

الاستقامة حتى ارتفع القطب للسائرين فى الشمال وانحط للسائرين فى الجنوب درجة واحدة . ثم اجتمعوا عند المفترق وقابلوا على ماوجدوه فكان مع احداهما ستة وخمسون ميلا وثلثاميل ومع الاخرى ستة وخمسون ميلا بلا كسر فأخذ بالاقل وهو ستة وخمسون ميلا .»

ولم يذكر أبو الفدا الاعملا واحدا والحقيقة أنهما عملان وقعا فى آن واحد أحدهما في برية سنجار فى بلاد مابين النهرين والآخر الى الشمال من بلد الشام بين تدمر والفرات . وقد أثبتهما ابن يونس وهو من أشهر الذين نبغوا في علم الهيئة في الخلافة العباسية توفي سنة ٣٩٩ هـ — ١٠٠٨ م .

وقال سناد بن على :

« أمرنى المأمون أن أحقق وخالد بن عبد الملك درجة في الدائرة العظيمة على سطح الارض فذهبنا لذلك وسار على بن عيسى الاصطرلابى وعلى بن البحترى من طريق أخرى . أما نحن فتوجهنا الى أن وصلنا بين فامية وتدمر فوجدنا الدرجة ٥٧ ميلا ووجدها كذلك على بن عيسى وعلى بن البحترى وبعثنا باخبر فوصل في آن واحد . »

وذكر ابن يونس رواية احمد بن عبد الله الملقب بحبش فى كتابه « مطالع الأرصاد » . وحاصلها أن العلماء ساروا فى برية سنجار وقاسوا الدرجة فوجدوا أنها ستة وخمسين ميلا وربع ميل من أميالهم . »

أما الطرق المتبعة الآن فى قياس الدرجة فمادها حساب المثلثات وهو حساب دقيق جدا (راجع المقتطف م ٢٨ ص ٤٤٠ و٤٤١) .

***

وبعد أن أسس الخليفة المنصور العباسى مدينة بغداد سنة ١٤٨ بعد الهجرة (٧٦٥ م) استقدم الطبيب النسطورى « جورجيس بن بختيشوع » من مدرسة جنديسابور وعينه طبيباً ملكياً . ومنذ ذلك الحين توارث الأطباء

النسطوريون وظيفة التطبيب في قصور الخلفاء زماناً ، وأسسوا مدرسة طبية في بغداد .

ولما مرض « جورجيس » في بغداد وأذن له الخليفة بالرجوع الى جنديسابور عين مكانه تلميذه « عيسى بن صهاربخت » وقد ألف كتابا في فن الادوية — الاقرباذين — غير أن القفطي صاحب كتاب « أخبار الحكماء » يقول — « لما طلب المنصور جورجيس بعد رجوعه الى جنديسابور مريضا وعوفي ، وجد عند الطلب ضعيفا من سقطة سقطها من سطح داره فاعتذر عن ذلك وتقدم الى عيسى هذا بالمضي الى المنصور فامتنع ، فسير عوضه ابراهيم تلميذه وبقي عيسى هذا في البيمارستان بجنديسابور مقيما » . غير أن أكثر المؤرخين على الضد من رواية القفطي يثبتون أن عيسى قدم بغداد وطب بها .

وقدم من بعد ذلك الى بغداد (نختيشوع) بن (جورجيس) وكان طبيبا للخليفة هارون الرشيد سنة ١٧١هـ (٧٨٧م) . ومن بعده قدم ابنه جبرائيل ، فارسل ليقوم على تطبيب جعفر البرمكي ، وزير هارون الرشيد . وكتب جبرائيل مدخلا لعلم المنطق ورسالة للمأمون في التغذيه والمشاريب ، وملخصا في الطب أخذ عن ديوسقورس Dioscorus وجالينوس وبولص الاجانيطي ، وكتب في وصايا طبية كثيرة ، ورسالة في الروائح ، وغير ذلك . ومن المعروف أن الطب الهندي كان أول ما أدخل في مدرسة جنديسابور ، ومن ثم امتزج بالطب اليوناني . ولكن اليوناني تغلب أخيرا .

ومن الذين اشتهروا من الاطباء في بغداد « يحيي بن ماسرجس » أوماسرجويه John bar Maserjoye وقد رأس مدرسة الطب في بغداد زمانا . وله مترجمات كثيرة ومؤلفات . ويقول الاستاذ « أوليري » انه مترجم كتاب « سنتاغما » Syntagma الى اللغة السريانية .

وظل الطب عند العرب واقفا عند حد النقل والترجمة تأليفا ، وعند تجارب مدرسة الاسكندرية عمليا . ولقد أشرنا من قبل الى تلك الاساطير التي تخالطت

بالطب والكيمياء في مصر بمدرسة الاسكندرية . فان هذه الاساطير قد ظلت مؤثرة أثرها المحتوم في العرب طوال أيام مدنيتهم .وكان هذا الامر سبباً فى أن العقل العربى لم يثب الى الابتكار في علم الطب مبكرا، شأنه فى كثير من ضروب المعارف التى زاولها . فان الابتكار فى الطب لم يأت إلا في عصور متأخرة من لمدنية العربية

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى نقع على ابى العباس احمد بن الطيب السرخسى . وكان تلميذا للكندى ، ويقال انه كتب مقالة في الروح ، ومختصرا لايساغوجى،والمدخل الى صناعةالطب(راجع المسعودى جزء ٢ص٧٢ طبع ليبرج)

وحتى عصر السرخسى كانت المباحث الطبية محصورة فى يد المسيحيين واليهود غالباً . حتى انك لتجد مؤلفا يقال يوحنا أو يحيي بن سيرابيون — John bar Serapion ولم أقف على كنيته العربية — فى أواخر القرن التاسع الميلادى، يكتب في الطب باللغة السريانية مختصرات ترجم احدها عدة ترجمات ، وطبعها من بعد ذلك في اللاتينية « جيرار الكريمونى » Gerard of Cremonia

ويعتبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى أبا الطب العربى ، توفي سنة ٣١١ أو ٣٢٠ هـ .(٩٢٣أو٩٣٢م)و يلقبه كتاب اللاتينية « بالرازيس » Rhazes وكان مؤلفا موسيقيا، كما كتب في الفلسفة والادب والطب.وغالب مايشير في مؤلفاته الطبية الى ثقاة من كتاب الهند واليونان.

ولا مشاحة فى أن ادخال العنصر اليونانى الصرف فى المؤلفات الطبية والاستعاضة به عما كتب أطباء مدرسة الاسكندرية نقلا عن القدماء ، كان أعظم ماقام به مؤلفو العرب لصناعة الطب من الخدمات.على أن مؤلفات « الرازى » قد سادت فيها الفوضى ووصفت بضعف التأليف . فهى ليست سوى مجموعة من المقالات مفككة العرى غير متواصلة الحلقات.ولهذا السبب وحده رجع طلاب الطب عن مؤلفاته الى ما كتب ابن سينا لان مؤلفات ابن سينا فيها من الالفة

والنظام بقدر ما فى مؤلفات «الرازى» من التفكك وعدم التواصل .

ولقد تلقى «الرازى» العلم بعد أن كبر. ولما نبغ تولى رياسة الاطباء فى بيمارستان بغداد. ومن الامثال التى كانت جارية على الالسنة وتدل على منزلة الرازى قولهم « كان الطب معدوما فاحياه جالينوس ، وكان متفرقا فجمعه الرازى ، وكان ناقصا فكمله ابن سينا » . وهذا المثل يدل واضح الدلالة على أن مؤلفات «الرازى» خليقة بما وصفناها به من قبل .

واشتغل الرازى بالكيمياء واستكشف ماسماه «زيت الزاج» وهو الحامض «الكبريتيك» ، والكحول. استحضر الاول باستقطار كبريتات الحديد واسمه فى العربية « الزاج الاخضر» ، فلما استقطره خرج منه سائل اسماه «زيت الزاج». ولا تزال الطريقة التى اتبعها الرازى فى استخراج ذلك الحامض متبعة في استخراجه حتى اليوم . وأما الكحول فقد استحضره باستقطار مواد نشويه وسكرية مختمرة .

وألف فى استخراج الذهب من المعادن الاخرى مؤلفا كان لا يعتقد أنه حق وعلم صحيح ولكن الراجح أنه ما ألف فيه الا ابتغاء الرزق والمال ليستعين به على تجاريبه الكيماوية . والف كتباً كثيرة لم يبق منها إلا القليل . ويقال انها كانت مائتى مؤلف . والباقى منها كتاب « الحاوى » وهو أهمها ، كتبه في الامراض ووصفها ومداواتها. وكتاب «الطب المنصورى» ، وكتاب « الجدرى والحصبة » وكتاب «الفصول فى الطب» وكتاب «الكافي» ، وقد ترجم الى العبرية وهو موجود الآن فى جامعة اكسفورد ، وكتاب « برء الصناعة» وكتاب «الطب الملوكي » .

وكان الخليفة المنصور أكبر مشجع للاطباء النسطوريين على أن يسكنوا بغداد ويعلموا فيها . وكان له ضلع كبير فى ترجمة الكتب العلمية والفلسفية عن اللغات اليونانية والسريانية والفارسية. غير أن اهتمام الخليفة المأمون بهذا الامر كان أكبر ، وحمايته للعلماء والحكماء أثبت وأكثر تشجيعاً .

— ٤ —

أسس المأمون الخليفة العباسي مدرسة بغداد سنة ٢١٧ هـ . (٨٣٢ م) على نسق المدارس النسطورية والزرادشتية التي كانت مؤسسة من قبل ذلك . وسمى تلك المدرسة « بيت الحكمة » ووضعها تحت عناية « يحيي بن ماسويه » (١) John bar Maswai الذي توفى سنة ٢٤٣ هـ . (٨٥٧ م) وقد مر بنا ذكره . وهو من المؤلفين فى السريانية والعربية . أما مقالته فى الحميات فقد كانت العمدة فى دراسة ذلك المرض زماناً طويلا . ونقلت من بعد الى اللاتينية والعبرية .

أما أكبر الأعمال التي قام بها بيت الحكمة شأناً فترجع الى المجهودات التي بذلها تلاميذ يحيي وتابعوه وعلى الأخص « أبو زيد حنين بن اسحاق العبادى . » المتوفى سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦م) وهو ذلك الطبيب النسطورى الذى مر ذكره فى تاريخ النقل عن اليونانية الى السريانية . فقد نقل فضلا عن المؤلفات الطبية جزء من منطق أرسطوطاليس « الأورغانون » . وبعد أن درس أبو زيد في بغداد رحل الى الاسكندرية وعاد منها مزوداً بكل ثمار الدرس التي كانت شائعة متقناً للغة اليونانية التي استخدمها فيما بعد اداة للنقل الى السريانية والعربية .

واجتمع معه في « بيت الحكمة » ابنه اسحق وابن أخته حبيش الأعسم الدمشقي . وترجم حنين الى العربية مقالات إقليدس Euclid وبضعة مؤلفات عن جالينوس وأبقراط وأرخميديس Archimides وأبولونيوس البرغوسى Apollonius of Pergaeus وهو أكبر الذين اشتغلوا بالهندسة فى العالم اليونانى بعد أرخميديس . ولد في الغالب سنة ٢٥٠ ق . م . ومات فى حكم بطليموس فيلوباتر Ptolemy Philopater فكأنه عاش بعد أرخميديس بأربعين عاماً تقريباً . وكتب كثيراً ، غير أن كل ما كتبه في اليونانية فقد بتمامه ، ولم يبق الا ماترجم

---

(١) يلاحظ أن اسم John يترجم حينا باسم يوحنا وحينا باسم يحي . كذلك فعل العرب وأكثر المترجمين — فقد يقال مثلا يوحنا النحوى فى كتاب وفى كتاب وفى آخر يحي .

العرب عنه . وكذلك ترجم أبو زيد عن غيرهؤلاء، كما ترجم الجمهورية The Republic وكتاب تيماوس Timaeus لأفلاطون وقاطيغوریاس ، والفوسيقا ، والماغناموراليا Magna Moralia أى الاخلاق الكبير عن أرسطوطاليس، وتعليقات تيمستيوس Themistius على المقالة الثلاثين من المتيافيزيقا ، وترجمة كاملة للانجيل الى اللغة العربية . ولم يقتصر على هذا بل ترجم أيضاً كتاب أرسطوطاليس في المعادن وهو كتاب ظل زمانا طويلا مرجعاً من أهم المراجع في دراسة الكيمياء . وعن أصله اليونانى أخذ بولس الاجانيطى .

أما ابنه اسحاق ففضلا عما نقل فى الطب ، فقد ترجم الى العربية تراجم أخرى منها « السوفسطائى » The Sophist لأفلاطون ، والميتافيزيقا والروح (ده أنيما) de Anima والكون والفساد Degeneratione et de Corrupotione وإرمانوطيقا أو « بارى أرمنياس » أى العبارة لارسطوطاليس ، وهذه المقالة ترجمها أبوه حنين الى السريانية ، ثم تعليقات على « فرفوريوس » والاسكندر الافروديسى وأمونيوس Ammonius .

وبعد ذلك بقليل ظهر فى أفق التأليف « قسطا بن لوقا » Questa ben Loqa البعلبكى ، وقد درس في بلاد اليونان وترجم كثيراً . ومن أشهر ما كتب كتاب « الفلاحة اليونانية » نقله عن السريانية ، وقد طبع بمصر سنة ١٢٩٣ هـ . وتوفى ابن لوقا سنة ٣١١ هـ . — ٩٢٣ م .

وكان القرن الرابع الهجرى فى الحقيقة العصر الذهبى فى تاريخ الترجمة والنقل عند العرب . أما ذلك العمل العظيم الذى تم فى ذلك العهد ، فان كان فى واقع الأمر راجع الى فئة من المسيحيين الذين كانوا يتكلمون السريانية واتخذو الامثال التى درسوها فى لغتهم ، الا أن عددا عظيما من الترجمات قد نقلت اذ ذاك عن اليونانية مباشرة ، نقلها مترجمون درسوا تلك اللغة فى الاسكندرية أو فى إغريقية . وغالب ما كان المترجم منهم قادرا على أن ينقل عن اليونانية الى العربية

والسريانية معاً . وكان هناك مترجمون عن السريانية ، غير أنهم كانوا يعتبرون فى المنزلة الثانية بعد المترجمين عن اليونانية .

من بين المترجمين النساطرة الذين نقلوا عن السريانية نذكر « أبو بشر متى بن يونس » المتوفي سنة ٣٢٨ هـ . (٩٣٩ م) وقد ترجم الى العربية أناليطيقا الثانيةAnalytica Posteriora والبويطيقا لارسطوطاليس وتعليقات الاسكندر الافروديسى على كتاب الكون والفساد لارسطوطاليس، وتعليقات « تيمستيوس » على الكتاب الثلاثين من الميتافيزيقا . وكل هذه الكتب نقلها عن السريانية . وله مؤلفات مبتكرة فى التعليق على قاطيغورياس أى المقولات لارسطوطاليس والايساغوجي لفرفوريوس .

ومن الثابت فى تاريخ هذه النهضة الكبيرة أن مترجمى اليعقوبيين يأتون بعد النساطرة . وكان من بين الذين نقلوا منهم عن السريانية الى العربية « يحيي بن عدى » المتوفي سنة ٣٦٤ هـ . — ٩٧٤ م . وكان تلميذا لحنين بن اسحاق ، وقد راجع كثيرا من الترجمات التى تقدم عليه بها المترجمون وأصلح نقصها وأضاف اليها ما استقامت به معانيها . وترجم عن أرسطوطاليس كتاب قاطيغورياس والسوفسطيقا والبوليطيقا والميتا فيزيقا ، وعن أفلاطون القوانين وتيماوس ، وعن الاسكندر الافروديسى تعليقاته على قاطيغورياس — المقولات — وعن « ثيوفراسط » Theophrastus الذى علم بعد أرسطوطاليس فى اللوقيون ، كتاب الاخلاق . وكذلك ترجم « أبو على عيسى بن زاره » عن أرسطوطاليس كتاب قاطيغورياس ، والتاريخ الطبيعى وكتاب الحيوانات Animalia مع تعليقات يوحنا فيلوبونس .

أما وقد بلغنا هذا المبلغ من البحث فليس ثمة من حائل يحول دون الكلام فيما وقف عليه العرب من مؤلفات أرسطاطوليس .

كان « الاورغانون » أى المنطق لارسطوطاليس ، من أوليات ماعرف

العرب عن المعلم الاول. وقد عرفوا منه كتاب اريطوريقا (الخطابة) والبويطيقا (الشعر) مع كتاب ايساغوجي لفرفوريوس .

أما مؤلفات أرسطوطاليس فى العلم الطبيعى فقد عرفوا منها الفوسيقا وكتاب الكون الفساد وتاريخ الحيونات الطبيعى Historia animalium وكتاب الروح de Anima . أما كتاب المتيورلوجيا — الآثار العلوية — الذى عرفه العرب ، فظاهر الانتحال ، وليس لارسطوطاليس . وعرفوا عنه من العلوم الادبية الميتافيزيقا وعلم الاخلاق الى نيقوماخس Niconacheàn Ethics وعلم الاخلاق الكبير . على أن هنالك شكا كبيرا فى أنهم عرفوا الاخلاق الى نيقوماخس .

ومن غريب الامر أن سياسة أرسطوطاليس لم يعرفها العرب ولم يعنوا بها، واستعاضوا عنها بقوانين الجمهورية لافلاطون .

ويرجح أن هذا هو السبب المباشر فى أن نظم الحكومات ظلت عند العرب غارقة فى طيات النظر الغيبى وأعانهم على ذلك ادماج الحكومة فى الدين والخلط بين السلطتين الدينية والدنيوية وعدم التفريق بين سلطات التشريع والقضاء والادارة.

وقد نسب العرب الى أرسطوطاليس كتاباً فى المعادن وآخر في الميكانيكا لايعرف الباحثون فى العصور الحديثة عنهما شيأ . وليس ذلك بكاف في اثبات أنهما لغيره . ولكن الدليل الذى يرجح أنهما لغيره أن أرسطوطاليس لم يشر الى هذين الكتابين فى بقية كتبه التى استكشف أصلها اليونانى فى أوائل القرن التاسع عشر .

وظل « الاورغانون » قاعدة التعاليم الانسانية عندهم ، ومشى جنباً لجنب مع علومهم الاصلية ، كالنحو والفقه . والظاهر أن ذلك أمر طبيعى الوقوع في كفاءآت العقل الانساني . أمر طبيعى أن يأتلف المنطق وعلوم الكلام . فان

هذه الظاهرة ان كانت قد وجدت متسعا فى العقل السامى فى آسيا ، فان آثارها ظهرت فى أوروبا لدى انتشار الفلسفة المدرسية فى العالم اللاتينى ، قبل أن يكون لزعماء هذه الفلسفة أى احتكاك بالعرب . فكأن العقل اللاتينى والعقل التيوتونى، الآريين ، لم يعدوا القاعدة التى جرى عليها العقل السامى .

ظل منطق أرسطوطاليس علماً ثابتا أصيلا فى كل البلاد التى عرفته ، وبين كل الامم التى احتكت بالفلسفه اليونانية . رحبت به العقول أينما حل ولم تنفر منه الطبائع . لذلك تجد أن كل المناقشات الفلسفية واللاهوتية التى تقع عليها فى كتب العرب ليست سوى مسائل مستمدة أصولها من الميتافيزيقا والبسيكولوجيا ولهذا تجدها جميعا ذات آصرة متينة بالكتاب الثانى عشر من الميتافيزيقا، والكتاب الثالث من رسالة الروح de Anima .

عرفنا من قبل أن البسيكولوجيا لارسطوطاليس لم تفسر عند العرب الا بالاستعانة بما كتب فيها الاسكندر الافروديسى من التعليقات . وبذلك اصطبغت بصبغة من الالوهية وما بعد الطبيعة (الغيبيات) أكملتها من بعد المدرسة « الافلاطونية الجديدة » وتعاليمها المستمدة من كتاب « ايثولوجيا » للشيخ أفلوطين الاسكندرى ، على الاخص ، وهو كتاب فى القول بالألوهية نسب خطأ الى أرسطوطاليس ، وكان سبباً فى أن يعنت المعلم الثانى ، أبو نصر الفارابى نفسه فى سبيل التوفيق بين أفلاطون وأرسطوطاليس . ولم تذع الفكرات الخاصة بالقول بالالوهية فى « الافلاطونية الجديدة » بين العرب الا بعد أن ترجم كتاب « ايثولوجيا » المنسوب الى أرسطوطاليس الى العربية سنة ٢٢٦ هـ . — ٨٤٠ م .

والحقيقة التى تثبت من البحوث الحديثة أن كتاب « إيثولوجيا » ليس سوى تلخيص لثلاثه الفصول الاخيرة من كتاب يسمى « إنياديس » Enneads

أى «التاسوعات» (١) وضعه الفيلسوف افلوطين الاسكندرى Plotinus فنقلها «بن ناعمة» Naymah الى السريانية ونشرها بين الناس في صورة كتاب مستقل منسوب الى ارسطوطاليس .

قد يؤخذ على هذا المترجم أنه لم يكن أمينا فى النقل، وأنه اظلم مفاوز العلم وأضل العلماء. غير أننا لا ننسى أن اسم افلاطون وافلوطين متقاربين في اللغة العربية كما هما فى اللغة اللاتينية ، وربما كانا متقاربين في اللغة السريانية أيضا. فلا يبعد أن يكون « بن ناعمة» قد تأثر بالرأى الذى شاع فى مدرسة الاسكندرية من القول بان فلسفة ارسطوطاليس وفلسفة شيخه افلاطون، غير مختلفتين فى الجوهر، وان التوفيق بينهما مستطاع . وتلك فكرة ورثها العرب ، ومضوا عليها عا كفين .

ولما ذاع كتاب « إيثولوجيا» اقترن درسه بدراسة تعاليم الاسكندر الافروديسى، وكلاهما يشرح أصول المذهب الافلاطونى الجديد، فكان لذلك أثر ظهر بارزاً في ما كتب العرب من كتب الفلسفة الاسلامية في سائر فروعها

أما بين يدى الفلاسفة ، والذين هم جديرون بحق أن يسموا فلاسفة، فقد ظهر بين العرب فيما كتبوا ضربا من الافلاطونية الجديدة مصبوغا بالصبغة الاسلامية، تشكل في آخر حالاته بما كتب الرئيس ابن سينا، والفيلسوف ابن رشد. ونقل على هذه الصورة الى الفلسفة المدرسية فى العالم اللاتينى في أوروبا ، فكان أثره بين اللاتين لا يقل عن أثره بين العرب . ولما استشم هذا المذهب ريح الفكر الغيبى انقلب الى «باطنية» قاسية الاحكام ظهرت تحت عنوان «التصوف» عند العرب، وكانت سبباً فى ذلك الضرب من «اللاهوت التأملى» الذى نمته الباطنية وشربته بروحها الخيالية. وكثيراً ما تخالطت الفكرات الشائعة فى ذلك المذهب باللاهوت الاسلامى الصحيح، وظهرت ممزوجة به أو ممزوجا بها، مزجا يظهر جليا فى سطور

---

(١) يروى أن كتب افلوطين جمعها تلميذه فرفوريوس الصورى فى ستة مجلدات وكل مجلد يحوى تسعة كتب وانه اسماها التاسوعات Enneads فكأن اسم الكتاب من وضع فرفوريوس لا من وضع افلوطين، وان الاسم صرف على مجموعة اعماله الفلسفية

المؤلفات التى تناولت تلك الابحاث.

أما التعاليم الاولى لتلك « الافلاطونية الجديدة » كما تحورت في اللاهوت الاسلامى ، فتنحصر أولا فى الاعتقاد بالعقل الايجابى — ويسمونه «العقل الفعال» الذى كان الاسكندر الافروديسى أول من قال به، على أنه فيض من فيوض الله. ثم العقل السلبى — ويسمونه العقل المستقل — ويختص به الانسان وحده، ولا ينشط هذا إلا بقوة يبعثها فيه العقل الفعال. وما هذا المذهب فى مبناه وتفصيله إلا مذهب الافروديسى إذ يقول — «ان غرض الانسان من الحياة ينحصر في أن يصل بين عقله الهيولانى والعقل الفعال بوحدة متينة». غير أن طريقة هذا الاتصال تختلف عند الفلاسفة وعند الباطنيين .

* * *

يأتى بعد الفلسفة علم الطب. وهو من أكبر ماورث العرب عن اليونان. غير أن هذا العلم، وقد استمد من مدرسة الاسكندرية ومن بيئتها ، لم يظهر بين العرب إلا مسمما بتعاليم المدرسة المصرية المتأخرة ، فظهرت تعاليم جالينوس وابقراط ممزوجة بضروب من السحر والطلسمات والتنجيم، فظلت هذه العوامل شديدة الاثر في أكثر ما خرج فى الطب من المؤلفات العربية. أما الاثر الحقيقى في الطب فقد نقل عن اليونان، وقد استمد أولا من كتب النساطرة في الفلسفة، ثم من بعد ذلك عما كتب النساطرة والزرادشتيون فى مدرسة جنديسابور

بعد ذلك يدخل الاثر الحرانى فى الطب عند العرب . وكانت مدرسة حران الوثنية ذات صلة وآصرة بالافلاطونية الجديدة أيضا. ولما سر المنصور الخليفة العباسى بحران على رأس جيشه ليحارب امبراطور بيزنطية، أبدى عجبه من زى تزيي به بعض الذين قدموا من حران ليؤدوا فروض التحية والولاء، فرآهم مهدلى الشعر ، يرتدون ملابس ضيقة تلاصق أجسامهم . ولما وقف على أمرهم وانهم ليسوا نصارى ولا زرادشتيين ولا يهود ولا من أهل الكتاب، علم أنه استكشف مستعمرة وثنية فى

ملكه الاسلامى ،فامرهم أن يعتنقوا ديناً من الاديان ذوات الكتب قبل أن يعود من الحرب و إلا فانه يكون فى حل اذا حكم السيف رقابهم. فاعتنق بعضهم الاسلام و بعضهم الدين النصرانى أو الزرادشتى ،وظل بعضهم أميناً لعقيدته الوثنية. غير أن هؤلاء ظلوا في حيرة من أمرهم حتى أدركهم مدره عربى أعطوه مالا تلقاءما ينصح لهم به من سبيل يخلصون به من سيف الخليفة . فنصح لهم بان ينقلبوا صابئين ، وهم من أهل الكتاب بنص القرآن. على أن الخليفة لم يمر بحران في عودته ،ولكن ظل الحرانيون الذين انتحلوا الصابئية آمنين بذلك النعت الجديد، فى حين أن الذين اعتنقوا الاسلام أو المسيحيةأوالزرادشتية ، ارتدوا الى دينهم تحت عنوان الصابئية .

كان « ثابت بن قرة »أعظم من عرف فى مدرسة حران فى العالم العربى. توفي سنة ٢٨٩هـ. وكان يجيد اللغة اليونانية، كما يجيد السريانية والعبرية، وترجم فى المنطق والرياضيات والتنجيم والطب، وكذلك في طقوس الوثنيين وتعاليمهم التى ظل أمينا عليها ثابت العهد لها. وهو أبوالحسن ثابت بن قرة بن هرون (ويقال زهرون) بن ثابت ابن زكريا بن ابراهيم بن كرايا بن مارينوس بن مالاميروس الحاسب الحكيم الحرانى.

«وكان في مبدإ أمره صيرفيا بحران ثم انتقل الى بغداد واشتغل بعلوم الاوائل فبرز فيها، وبرع فى علم الطب، وكان الغالب عليه الفلسفة. وله تآليف كثيرة فى فنون العلم مقدار عشرين تأليفاً ، وأخذ كتاب اقليدس الذى عربه حنين بن اسحاق العبادى فهذبه ونقحه وأوضح ما كان مستعجما . وكان من أعيان عصره فى الفضائل. وخرج من حران لخلاف بينه وبين أهل مذهبه فنزل الى كفر توثا، قرية كبيرة بالجزيرة الفراتية ، أقام بها مدة، الى أن قدم محمد بن موسى من بلاد الروم راجعا الى بغداد فاجتمع به فرآه فاضلا فصيحاً فاستصحبه الى بغداد وانزله فى داره ووصله بالخليفة فادخله فى جملة المنجمين فسكن بغداد وأولد الاولاد.» (راجع ابن خلكان مجلد أول ص ١٢٤ و١٢٥ طبعة أميرية)

ولقد توارث ال قرة العلم . فكان منهم ابنه أبو سعيد سنان، ومن أحفاده ابراهيم ثابت وأبو الحسن ثابت واسحق ابو الفرج،وكل هؤلاء نبغوافي الرياضيات والفلك.

وكان أبو الحسن ثابت بن سنان ثابت بن قرة ببغداد فى أيام معز الدولة بن بويه ، وقرأ عليه كتب بقراط وجالينوس ، وقد سلك مسلك جده ثابت فى نظره في الطب والفلسفة والهندسة وجميع الصناعات الرياضية للقدماء ». (راجع ابن خلكان جزء أول ص ١٢٥ طبعة مصر الاميرية)

* * *

أما ما كان يسمونه الفلاحة فقد نقل احمد بن على بن قيس الكلدانى المعروف بابن وحشية الذى عاش سنة ٢٩١ هـ كتاب الفلاحة النبطية» عن الكلدانية أملاه على على بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨ هـ. وجعله خمسة أجزاء ومنه نسخ خطية فى برلين وليدن واكسفورد والمتحف البريطانى وباريس ودار الكتب المصرية .ومن الفلاحة أيضا كتاب للزيتونى يقال له «مختصر الفلاحة» عن كتاب بن وحشية .

وقد تقدم أن لقسطا بن لوقا الطبيب النصرانى كتاب «الفلاحة اليونانية » نقله عن السريانية .أما كتاب ابن وحشية هذا فنرجع فيه الى الاستاذ نللينو.

والظاهر أن لمعتقد العرب في حركة إقبال الافلاك و إدبارها سببان : الاول ما ورثوه عن مدرسة الاسكندرية من النزعة الى التنجيم والباطنية . وما ورثوه عن هذه المدرسة أيضاً في فكرة أن الافلاك ذوات عاقلة .

ولقد يقال خطأ بأن العرب ورثوا هذه الفكرة أو الصناعة ، صناعة اقبال لافلاك وادبارها ، عن الكلدانيين، لانهم ترجموا كتاب تنكلوشا البابلى الى اللغة العربية . غير أن الاستاذ نللينو قد نفى هذه الفكرة وأثبت أن كتاب تنكلوشا مختلق اختلاقا . ولذا ننقل ماقاله في ذلك عن محاضراته التي ألقاها بالجامعة المصرية

وطبعت في كتاب تحت عنوان « علم الفلك عند العرب » — اثباتاً لرأينا الاول : واثباتاً لفكرتنا في أن اختلاق هذا الكتاب دليل على أن العرب قد قويت فيهم هذه النزعة من طريق مدرسة الاسكندرية ، لا من طريق غيرها : قال الاستاذ : حرفياً :

« تحفظ في أوروبا نسختان (١) من كتاب يخال المطلع عليه أول بدء أنه ترجمة تأليف تنكلوس الى العربية . واسم الكتاب في نسخة مدينة ليون — كتاب تنكلوشا البابلي القوفاني (٢) في صور درج الفلك وما تدل عليه من أحوال المولودين بها . نقله من اللغة النبطية الى العربية أبو بكر بن احمد بن وحشية (٣) أملاه على بن أبي طالب احمد بن الحسين بن على بن احمد بن محمد بن عبد الملك الزيات ، وفي نسخة مدينة بطرسبورغ : « كتاب تنكلوشا (كذا) القوفاي من أهل بابل في صور درج الفلك و بعض دلائلها على ما أخذ عن القدماء » . وغاية الكتاب وصف الصور العجيبة التي يتوهم المؤلف أن تطلع مع كل درجة من درج البروج الثلاثمائة والستين ثم ذكر صفات وأخلاق من كان طالع مولده الدرجة المذكورة (٥) وقال مثلا ان الدرجة الثلاثين من الميزان —

---

(١) Catalogus codicum orientatium Bibliothecae Acadcmiae Lugduno Batavae, Lugdumi Batavorum 1851—1877, t III, P.81, nr. 1047—V: Rosen, Les manuscrits arabes M L'institnt des langues Orientales, St. Petersburg 1877,mr 191 20.

ولعل نسخة ثالثة مصونة بالمكتبة اللورنتيانية(Biblioteca Laurenziana)في فيرنسى (Eirenze)في مدن ايطاليا

(٢) والصحيح القوفاني نسبة الى قوفان وهي الآن قريه تسمى عقرقوف في بلاد ما بين النهرين عن غربي بغداد. اطلب نولدكه (Noldeke) ص ٤٤٩ عن مقالته الآتي ذكرها عن قريب .

(٣) كذا في النسخة والصواب : (ابو بكر احمد)

(٤) كذا في النسخة والصواب: (علي أبي طالب)

(٥) مثال ذلك يكون عالما فيلسوفا يجمع الكتب ويكثر النظر فيها ويتعلم أكثر العلو ويحتوي على ما يريد الاحتواء عليه ويبلغ مطلبه ومقاصده أو أكثرها .

« يطلع فيها زحل فى صورته العظمى التى لا يطيق أحد أن ينظر اليه ولا أن يدنو منه على مسيرة الف سنة من شدة البرد والكزاز وهو جالس على رفرف من ديباج وقد جعل أحد رجليه على فخذ الآخر، وعلى رأسه تاج من الزمرد الاخضر وفى يده اليمنى طوق من حجارة الشبج فيه مرآة كبيرة محلاة وهى تلمع وتبرق ولحيته كبيرة بيضاء مثل الثلج وفى رجله خفا ديباج اسود جلد السوادوهومشتمل بكساء خزاً اخضر اسود شديد السواد وهو ساقط مطرق» (١) وقال ان الدرجة السادسة عشرة من برج العقرب« يطلع فيها لوح ذهب مدفون حواليه فصوص زمرد اخضر ورجل شيخ جالس فى حجره مصحف يقرأ فيه أخبار قياما الملك وأقاصيصه »(٢).وعلى قوله فى الدرجة التاسعة من برج القوس«يطلع فيها عقويا الحكيم فى صورته إذ كان شابا جميلا وقد أخذ بيده جارية حسناء وهو يحدثها بحديث صغار لا يفهمه أحد و يضحك اليها وعن يمينها الصن المقير الذى حمل فيه رأس ريخانا الملك الى عمه فلما رآه مات فبقى الصن بموضعه سنة لا يمسه أحد ولا ينظر اليه والباب دونه مغلق الى أن جاءهم رسول ملك الفرس فدخل البيت وحرق الصن والرأس فيه»(٣)—وجميع الكتاب خرافات مثل هذه يحكيها لدرجة درجة من فلك البروج . فاذا قابلناها على ما وصل الينا من تأليف توكرس أو تنكلوس الحقيقى وجدنا بين الكتابين فرقا عظيما بل بوناً شاسعا . ويركن تنكلوشا القوفانى (أو بالحرى ابن وحشية أو أبو طالب الزيات حسبما سأبين) الى حكماء أهل بابل الاوائل ودعاهم باسماء غريبة مختلفة اختلافا واضحاً مثل أرميسا وبرهانيا الخسروانى وغيرهما فلاريب فى أن هذا الكتاب هو المذكور فى الفلاحة النبطية لابى احمد بن على بن المختار المعروف بابن وحشية النبطى(٤)

---

١ Chwolson P. 463 "135„ N. 200.

٢ Chwolson P. 463 "135„ N. 289

٣ Chwolson P.455 "137„ N. 294.

(٤) النبط أو النبيط فى اصطلاح العرب فى القرون الاولى للهجرة اسم أهل الحضر المتكلمين باللغات الآرامية الساكنين فى الشام خصوصا فى بلاد ما بين النهرين. فليسوا النبط أو الانباط الذين اتسعت مملكتهم فى أرض الحجاز الشمالية الى حدود فلسطين ونواحي دمشق وصارت سنة ١٠٥ م ولاية من ولايات الرومان .

«ويضطرني ذلك الى وصف كتاب الفلاحة النبطية(١) ولو بغاية الاختصار. قال صاحبه في مقدمته ان الكتاب الاصلي ألفه قبله بالوف سنين حكيم بابلي اسمه قوثامي نقلا عن كتب أقدم من تأليفه بكثير وضعها ضغريث وينبوشاد وان ابن وحشية ترجمه من لسان الكسدانيين أو النبطية(والمراد اللغة البابلية القديمة) الى العربية سنة ٢٩١هـ — ٩٠٤م.(٢) وأملاه سنة ٣١٨ هـ — ٩٣٠م. على تلميذه أبي طالب احمد بن الحسين بن على بن احمد الزيات. فمغترا بهذا الكلام وبما وجد في الكتاب من الامور والاسماء الغريبة زعم خولسن(٣) أنه من آثار بابل الثمينة النفيسة ضاعت لولا ابن وحشية وابوطالب الزيات، فاستنبط من ذلك الاستنباطات البعيدة. ولتعلموا أن الفلاحة النبطية تتعلق بالعلوم السحرية أكثر منها بالطبيعيات والنبات فقال ابن خلدون (٤) «وترجم من كتب اليونانيين (كذا) كتاب الفلاحة النبطية منسوبة لعلماء النبط مشتملة من ذلك(٥) على علم كبير. ولما نظر أهل الملة(٦) فيما اشتمل عليه هذا الكتاب وكان باب السحر مسدوداً والنظر فيه محظوراً فاختصروا منه الكلام في النبات من جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له فى ذلك وحذفوا الكلام في الفن الآخر منه جملة. واختصر بن العوام كتاب الفلاحة النبطية على هذا المنهاج وبقى الفن الآخر منه مغفلا نقل منه مسلمة فى كتبه السحرية أمهات من مسائله».

وقال في موضع آخر (٧). «وكانت هذه العلوم (٨) في أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفى أهل مصر من القبط وغيرهم وكان لهم فيها التآليف والآثار

---

(١) نقل شيئا من هذا الكتاب محمد راغب باشا فى كتاب سفينة الراغب المطبوعة ببولاق سنة ١٢٨١هـ.(ص ٦٧٠ الى ٦٧٥)

(٢) وفى كتاب سفينة الراغب ص ٦٧١ (سبعين) غلط. والصواب تسعين.

(٣) ص ١٣٥ الى ٤٤٦ من كتابه السابق ص ١٩٨

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣١ من طبعة بيروت سنة ١٨٧٩ وص ٥٥١ من طبعة مصر سنة ١٣٢٧ وج ٣ ص ١٦٥ من الترجمة الفرنسية لدى سلان

(٥) أى من علم الفلاحه المرتبطة بعلوم السحر (٦) أى الملة الاسلاميه

(٧) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٤ بيروت وص ٥٥٤ مصر وج ٣ ص ١٧١ من الترجمة الفرنسوية

(٨) أى علوم السحر والطلسمات

ولم يترجم من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية من أوضاع أهل بابل، فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك الاوضاع . »

« أما الذين جاؤوا بعد خولسن من الباحثين عن حقيقة ذلك الكتاب لاسيما كتشمد المذور آنفاً ونولدكه (١) فبرهنوا البراهين الناطقة على أنه من تأليفات الشعوبية المفرطين في تفضيل الامم الاجنبية على العرب الخض المتخذين كل وسيلة جائزة كانت أم مكروهة أو مذمومة بلاغا الى مبتغاهم . فغرض كتاب الفلاحة النبطية إثبات أن قدماء أهل بابل قد توصلوا فى مدارج الحضارة والتمدن والتقدم العلمى الى غاية لم تتقرب منها العرب في الجاهلية ولا فيما بعد الاسلام . وحيث أن معرفة أحوال بابل واثور القديمة قد اندرست كلياً منذ قرون عند الشرقيين ، اخترع صاحب الفلاحة النبطية الاسماء والنوادر والاخبار وزور ولفق وموه وفى كل واد هام ووشى كلامه ونسج كتابه بالخرافات الشنيعة والاكاذيب الفظيعة »

« ومن أعجب العجائب أن كتاب الفلاحة النبطية على المحتمل ليس تأليف ابن وحشية كما قيل فى عنوان الكتاب وصدره ، بل انما هو من مختلقات أبى طالب الزيات (٢) الذى نسبه الى ابن وحشية أى الى رجل قد مات وقت نشر التصنيف تخلصاً من ذم اخوانه المسلمين وتبرئة لنفسه من تهمة النفاق والافتراء . وأنتم تدرون ما أكثر مثل ذلك الفعل عند أصحاب الاحكاميات والسحريات والكيمياء ، وكم من تأليف عزى مثلا الى هرمس وجاماسب وغيرهما من الحكماء الوهميين وكم نسب الى أبى معشر ومسلمة المجريطى من كتاب ألف بعد موتهما بقرون — وانى مرتاب حتى فى وجود ابن وحشية الذى عزا اليه صاحب كتاب الفهرست ص ٣١١ الى ٣١٢ عدة كتب

(١) Th. N. oldeke, Noch Einigs uber die "Nabataisch Landivirths-chaft„ "Zeitschrift der deutschen morgenlandischen Gesellschaft, xxxIx, 1875,445—455"

(٢) راجع نولدكه ص ٤٥٣ الى ٤٥٥

فى علوم السحر ، وص ٣٥٨ كتابا فى الكيمياء من دون أن يفيدنا شيئا ما من أحوال حياته . وأسماؤه أبو بكر أحمد بن على (١) بن المختار بن عبد الكريم ابن جريثا بن بدنيا بن برطانيا بن غلاطيا (كذا) الكسدانى . فترون أن أسماء أجداده أسماء وهمية لا أصل لها فى اللغات الآرامية (ومنها النبطية) أو في لغات أخرى ، بل أن برطانيا وغلاطيا أسماء ولايتين مشهورتين من ولايات المملكة الرومانية (٢) ذكرا أيضاً في كتابين لبطليموس منقولين الى العربية (٣) . فيتضح أنها جعلت أسماء أشخاص تزويراً . وزيادة على ماقلته نستفيد من كتاب الفهرست ص ٣١٢ أيضاً أن جميع تأليفات ابن وحشية في السحر انما عرفت برواية أبى طالب الزيات . فذلك يزيدنى ريباً في حقيقة وجود ابن وحشية .»(٤)

---

(١) وقيل بن على بن قيس بن المختار .

(١) أعنى Galatia , Britannia — ولعل بدنيا تحريف بيثونيا Bithynia أو بنونيا Pannonia

(٣) وهما الجغرافيا وكتاب الاربع مقالات .

(٤) المرجح استنتاجا أن شك الاستاذ نللينو فى وجود بن وحشية لامحل له . لان أبى طالب الزيات انما ينسب جميع الكتب المترجمة فى السحر لاستاذه ابن وحشية أى أنه ينسبها الى شخص قريب منه وعلى الاخص قرابة التلميذ من الاستاذ . ولا سيما فى الزمان . وابن وحشيه ولو انه اسم غريب الا أنه يظن أنه اسم عربى وعلى وزن عربى ولا يعقل أن أبى طالب الزيات يختلق اسما غير معروف أو يخلق اسما لامسمى له ويؤمل أن ينال المؤلفات التى ينسبها اليه ثقة المشتغلين بتلك الفنون بل يرجح أن ابن وحشية كان موجودا وأن أبى طالب الزيات لم ينشر هذه الكتب منسوبة اليه الا بعد موته . ولو نسب الزيات الكتب الى شخص غير معروف لطعن فيها ولظهر لهذا الطعن أثر من بعده . غير أن الامر الذى لاتشوبه شائبة عندى هى أن هذه الكتب بعد تحقيق الاستاذ نللينو من وضع أبى طالب الزيات . على أن اختلاق أسماء غير معروفة فى نسب ابن وحشية يجعل مجالا للشك فى وجوده . غير أن ورود هذه الاسماء فى آخر السلسلة يحمل على الظن بأن ابن وحشية لم يكن عربيا أصلا ، بل كان من الكلدانيين أو السريانيين وأن له جدين على الاقل اعتنقا الاسلام من قبله . والمعروف أن هؤلاء لايحفظون أنسابهم كما يحفظها العرب . لهذا يفتح مجال واسع لابى طالب الزيات لكى يتخذ من أسماء الولات الرومانية أجدادا لابن وحشية مبالغة فى تكريمه فى أعين العرب . (مظهر)

ثم نرجع الى علم الكيمياء . فنجد انفسنا مسوقين الى ان نقرن اسم «جابر بن حيان» بحران . وهو رجل ذو شخصية محققة الاثر فى تاريخ علم الكيمياء . ولم يتحقق الباحثون من تاريخ مولده . ولكن التاريخ يدل على أنه كان تلميذاً للامير خالد الاموى ، وهو أول أمير عربى عنى بالعلم ليكون عالما ، وكان ثابت القدم فى علم الكيمياء ، وتنسب مقالات كثيرة في ذلك العلم لجابر بن حيان . وتدل التقاليد على ان اكثرها صحيح النسب الية

يقول مسيو « برتيلو » ـ M. Berthelot في الجزء الثالث من كتابه «الكيمياء فى القرون الوسطى » La Chemie en Moyen age ـ (باريس ١٧٩٣) في تحليل تاريخى قيم أن تاريخ كيماوى العرب ينقسم الى قسمين . الاول ينحصر فى نقل المباحث الكيماوية التى قام بها فحول من علماء الاسكندرية . والثانى ينحصر في ما ابتكر العرب فى ذلك العلم بعد أن اتخذوا عمدتهم على مباحث الاسكندرية . غير أنه ينسب كل ما في هذا العلم من الابتكارات فى العصر العربى لجابر حيان حتى قال فيه «لجابر بن حيان فى علم الكيماء ، مالارسطوطاليس من قبله فى علم المنطق »

ونشر مسيو برتيلو في كتابه ذاك ستة مقالات صحت لديه نسبتها الى جابر ويعتبرها مسو برتيلو كمثال لما وصل اليه العقل العربى فى ذلك العلم من الابتكار ويقول بان كل الباحثين في هذا العلم من بعده كانوا عالة عليه نقلا وتعليقا .

لقد ظل العرب طوال قرون يقصرون مباحثهم فى الكيماء على البحث وراء تحويل المعادن الى ذهب . ولكن انقلبت الفكرة فيما بعد ذلك فاخذت الكيمياء بضلع أوسع من العلاقة بعلم الطب ، ولو أنها لم تتحرر تحريرا مطلقا من الاساطير القديمة . وكان لذلك العلم ثلاثة اغراض عند القدماء : الاول ايجاد محلل عام لكل المواد العنصرية : ثانياً اكتشاف مايدعونه بحجر الفلاسفة الذى يحول المعادن

الى ذهب : ثالثا العثور على إكسير الحياة ، وهو دواء يشفي جميع العلل والامراض.

إن موضوع هذا العلم كما كان يدركه القدماء لا يمت بآصرة بعيدة أو قريبة، لعلم الكيمياء كما عرف في العصور الاخيرة غير ان تحويل العناصر الى بعضها بالتجاريب الكيماوية لم يصبح في القرن العشرين ذلك الحلم الخيالى الذى تصور أهل القرن التاسع عشر أن القدماء تعلقوا باهدابه ضلة . على ان كل مايهمنا فى هذا الموضوع هو ما اقر عليه المؤرخون فى تاريخ العلم عند العرب فى أنهم كانوا ذوى كفاءآت اختبارية عظيمة ، وأنهم أجروا اختبارات جليلة القدر كبيرة الفائدة ، ولو انهم لم يدركوا كل الادراك ما كان لاختباراتهم تلك من الشأن والخطر الكبير .

إن كل المتون التى نشرها مسيو برتيلو بلا استثناء تبدأ بالتحذير من إذاعة اسرار تلك الصناعة ، وغالب ماتتضمن فقرات يدرك منها أن كاتب المتن قد تعمد أن يغفل ذكر بعض التجاريب والاختبارات لئلا يتناولها العامة الذين لم يتثقفوا فيفسدون على الناس امرهم وينكثون فتل الآداب والاخلاق ، بما يصبح بين أيديهم من الذهب الذى يحولونه عن المعادن الاخرى .

والكيماويون من العرب يدعون أنهم وصلوا الى تحويل المعادن إلى ذهب ، وأنهم وقفوا على سر ذلك . والتاريخ مملوء باشارات الى تلك الدعوى . غير أن بعض الناقدين من معاصرى الذين ادعوا هذه الدعوى يقولون بان دعواتهم لادليل عليها ولاصحة لها. وكثيراً ماأشار المؤرخون الى ان المعلم الثانى ، أبى نصر الفارابى كان يعتقد بصحة ذلك الامر ، وانه كان ثابت اليقين في امكان تحويل المعادن الى ذهب . غير انه مات فقيرا معدماً ، بينما تجد أن الرئيس بن سينا ، وهو ممن لم يعتقدوا ذلك الاعتقاد ، مات في كفاف من العيش ، وكان في مستطاعه ان يجمع ثروة كبيرة ، لو انه أراد ذلك .

ولقد أختلف المشتغلون بالكيمياء من العرب في كيفية تحول المعادن أى فى صحة اليكمياء كما كانت تعلم فى الصور الاولى . فقال بعضهم بانها تتحرك فيصير النحاس فضة وتصير الفضة ذهبا . وقال غير هؤلاء إن المعادن لاتتغير الا فى صورتها لاغير ، فيصبغ النحاس فيصير أبيض اللون كالفضة ، وتصبغ الفضة فتصير كالذهب ، ولكن كل معدن يظل حافظا لصفاته الاصلية فتظل الفضة فضة والنحاس نحاسا والذهب ذهباً . (راجع المقتطف م ٤١ ص ١٠٥ وما بعدها)

قال حجى خليفة في كشف الظنون « ان الناس فى علم الكيمياء على طريقتين فقال كثير ببطلانه منهم الشيخ الرئيس ابن سينا ، أبطله بمقدمات في كتاب الشفاء والشيخ تقى الدين احمد بن تيمية ، صنف رسالة في أنكاره . وصنف يعقوب الكندى أيضاً رسالة في ابطاله ، وكذلك غيرهم . لكنهم لم يوردوا شيئا يفيد الظن لامتناعه فضلا عن اليقين وذهب آخرون إلى إمكانه منهم الامام فخر الدين الرازى ، فانه فى المباحث الشرقية عقد فصلا فى إمكانه . والشيخ نجم الدين على الشيخ بن تيمية وزيف ماقاله في رسالته ومؤيد الدين الطغرائى صنف فيه كتبا منها « حدائق الاشهادات » و بين اثباته والرد على ابن سينا »

ولايقصد هنا بالاثبات والانكار الامسألة تحويل المعادن بعضها الى بعض لان الظاهر ان هذه الفكرة هي التى دار حولها محور علم الكيمياء في كل عصور المدنية العربية

قال الرئيس ابن سينا فى انكار تحول المعادن —

« نسلم بامكان صبغ النحاس بصبغ الفضة والفضة بصبغ الذهب ، الا أن هذه الامور المحسوسة يشبه ان لاتكون هى الفصول (أى الخواص) التى تصير بها هذه الاجساد انواعاً ، بل هي اعراض ولوازم ، والفصول مجهولة . واذا كان الشيء مجهولا فكيف يمكن أن يقصد قصد ايجاد أو إفناء ؟ »

وقال الامام الرازى مثبتاً :

«الامكان العقلى ثابت،لان الاجسام مشتركة فى الجسمية ، فوجب أن يصح على كل واحد منها مايصح على الكل .أما الوقوع فلأن انفصال الذهب عن غيره هو بالرزانة ، وكل واحد منهما يمكن التشابه فيه ولا منافاة بينهما »

ونقل الفارابى تعليل أرسطو في اثبات التحول .

« أن الفلزات واحدة بالنوع ، والاختلاف الذى بينها ليس في ماهيتها ، وأنما هو في اعراضها . فبعضه فى أعراضها الذاتية ، وبعضه فى أعراضها العرضية وكل شيئين من نوع واحد اختلفا بعرض ، فانه يمكن انتقال كل واحد منهما الى الآخر . فان كان العرض ذاتياً عسر الانتقال ، وان كان مفارقا سهل الانتقال ، والعسر في هذه الصناعة انما هو لاختلاف اكثر هذه الجواهر فى أعراضها الذاتية، ويشبه ان يكون الاختلاف الذى بين الذهب والفضة يسيرا جداً »

وقال الامام شمس الدين محمد بن ابراهيم الانصارى .

« اذا اراد المدبر أن يصنع ذهباً نظير ما صنعته الطبيعة من الزئبق والكبريت الطاهرين ، فيحتاج الى اربعة اشياء كمية كل واحد من ذينك الجزءين وكيفية ومقدار الحرارة الفاعلة للطبخ وزمانه . وكل واحد منها عسر التحصيل . وأما ان أراد ذلك بأن يدبر دواء وهو المعبر عنه بالاكسير مثلا ، ويلقيه على الفضة ليمتزج بها ويستقر خالدا فيها ويكسوها لون الذهب ورزانته — المقصود بها الثقل النوعى في الاستعمال الحديث — فاستخراج ذلك بالتجربة يحتاج الى استقراء حال جميع المعدنيات وخواصها . وان أستخرج بالقياس فمقدماته مجهولة . ولا خفاء فى عسر ذلك ومشقته »

ومما يلاحظ هنا أن أقوال المثبتين والمنكرين كلها نظرية مبنية على الاقيسة المنطقية ، ولا شأن لها بالعمليات

ومما لاشك فيه أن العرب أخذوا مبادىء الكيمياء عن اليونان . فان منهم

فلاسفة بحثوا في الاصول العنصرية منهم هيرقليطس الافسوسى الذى قال بان النار أصل العناصر ، و إمبيذقليس الذى قضى بان العناصر أربعة الماء والهواء والنار والتراب وقد تدعى بالاستقصات الاربعة،وديموقريطس الذى قال بتكون العالم من حركات الجواهر الفردة المكونة للهيولى،وانا كساغوراس الذى اتبع طريقة قياس التمثيل في حل معضلات الطبيعة الكونية ، وارسطوطاليس الذى قضى بان الاثير يجب أن يضاف الى العناصر الاربعة وانه عنصر العناصر

ولما انتقلت علوم اليونان الى مصر من طريق مدرسة الاسكندرية توسع الكهنة الذين كانوا يدرسون العلوم في الاشتغال بعلم الكيمياء وزعموا أنهم حولوا المعادن الى ذهب في أول عصور المسيحية فاضلوا كثيراً من محبى الاستطلاع والطامعين فى الغنى العاجل حتى اضطر الامبراطوران ساويرس وديوقلتيانوس أن يأمرا باعدام كل كتب الكيمياء.ولكن نجت منها طائفة وصلت الى أيدى العرب فكانت عمدتهم في هذا الموضوع ومنها اقتبسوا الالفاظ اليونانية المستعملة عندهم في الكيمياء .

***

في خلال القرون الوسطى ترجمت عدة مقالات عن « جابر بن حيان » الى اللاتينية .ويدعونه «چيبر» Geber وكان له أثر كبير فى تكوين مدرسة كيماوية ذات أثر في بلاد الغرب.وبعد قليل كثر العارفون بتلك الصناعة فكتبوا مقالات كثيرة في اللاتينية نسب أغلبها الى جابر .غير أنها ظاهرة الانتحال

على أن الروايات عن جابر كثيرة،والقصص من حوله عديدة وجوهه . غير أن مسيو برتيلو يعتقد بان كل الظواهر التاريخية تدل على أن جابراً كان ذا آصرة قريبة ونسب أدنى الى حران فى أوائل القرن الثانى من التاريخ الهجرى.

برقين — ١٩٢٤